الطبعة الثانية

يا عيني يا مصر

oh.. egypt !

Looloo
رؤية ساخرة
www.dvd4arab.com

د. نبيل فاروق
Dr. NABIL FAROUK

دار دوّن

" القضاء على الرشوة والفساد والمحسوبية ، كان يوماً من أهم أسباب قيام أكبر وأشهر ثورة فى المنطقة العربية ...
ومن المؤكّد أن أول من فاجأتهم الثورة ، هم اولئك الذين أدت سياستهم العمقاء الفاسدة والمتجبرة إلى قيامها !!! "

Looloo
www.dvd4arab.com

تجربة بيروقراطستان

Looloo
www.dvd4arab.com

كتبت هذه الكلمات وأنا أخوض الفصل الأخير، أو ربما قبل الأخير من تجربة مدهشة ، تستحق التسجيل.. تجربة لا يمكن أن تحدث إلا فى بلد كبلدنا يحكمه حزب واحد منذ أكثر من ربع قرن.. حزب اعتاد استخدام كلمات فخمة وضخمة وتعبيرات وطنية رنّانة لتحقيق أهداف لا ينحدر إليها إلا بلطجي من الدرجة الثالثة .. حزب نجح فى إقناع كبيره بأن يقتصر عليه وحده دون باقى المصريين، فى حالة فريدة وسط عالم ينطلق نحو التقدُّم والتطوّر بسرعة الصاروخ .

حزب الأقوال الكبيرة والأفعال الأقل من الصغيرة، والذى نشر فى البلاد فساداً لم ترى مثله ربما فى تاريخها كله؛ لأنه فساد من نوع خاص لا يبالى بردود الأفعال ولا يلتفت للانتقادات أو حتى الصرخات، ويمضى فى غيه بكل بلطجة متسلحاً بقوات أمن ، يفوق عددها وتعدادها دولاً أخرى أكثر تطوّراً وتأثيراً فى السياسة العالمية..

ولأن الحديث عن الفساد ورائحته طال وباخ ولم يعد حتى يجذب انتباه أحد، أو يتوقّف عنده مخلوق مع انشغال الكل بالانغماس فيه، من أصغر صغير وحتى أكبر كبير؛ فالأجدى أن أتوقّف عن وصفه لأفسح الطريق لتلك التجربة التى أضاءت أمامى دولة ضخمة تقبع فى أعماق مصرنا، وتنخر فيها فى سرعة وشراسة كما ينخر السوس فى خشب قديم متهالك. وربما تعتبر هذه التجربة امتداداً للموضوع نفسه، الذى انتهى قبل نشر الاعتذار الذي قدمته مباشرة لأنها تندرج فيما تندرج، على نوع هام وخطير جداً، من فساد النظام الطبى فى مصر ولأنها

Looloo
www.dvd4arab.com

فى موجز شديد تجربة طبية فريدة..

ولقد بدأت تلك التجربة على نحو مباغت وغير متوقَّع فى الأيام الأخيرة من عام ٢٠٠٦م..

ففى ذلك التاريخ وبعد فترة طويلة من المعاناة من مرض السكر المزمن وارتفاع ضغط الدم، استيقظت ذات صباح لأشعر بتثاقل غير طبيعى وتهالك يفوق المعتاد، ولما كنت أعانى من زيادة مؤخرة فى الوزن، لا تتناغم مع الجهد المبذول ونوعيات الطعام البسيطة التى تواكبه والمكوَّنة فى معظمها من الفول والبيض كعادتى، فقد طرحت هذا خلف ظهرى، ونهضت لحلاقة لحيتى وما أن وقفت أمام المرآة حتى وجدت أمامى مفاجأة..

* * *

الشخص الذى طالعنى وجهه الضخم المنتفخ فى مرآة الحمام، كان يشبهنى إلى حد كبير إلا أنه يختلف فى أن كل لمحة فيه أشبه ببالون كبير، فالأنف والخدان والشفتان كلها منتفخة متورِّمة، وعيناى تبدوان ضيقتين على نحو لم أره من قبل قط، كنت يومها مضطراً للذهاب لتجديد جواز سفرى، الذى بقى يوم واحد على موعد انتهائه ففرَّرت أن أخرج من مجمَّع التحرير إلى أقرب عيادة طبية؛ لتشخيص الحالة التى غابت عن ذاكرتى، بعد سبعة عشر عاماً من التوقُّف عن الممارسة الطبية، تشخيصاتها المقارنة المنطقية، وعدت بعد حلاقة لحيتى لارتداء ملابسى، لتصدمنى مفاجأة ثانية أشد عنفاً..

فملابس الأمس التى كان مناسبة تماماً أصبحت فجأة، فى غضون يوم واحد شديدة الضيق، تختنق عند صدرى وبطنى بالكاد، وهنا أدركت أن الأمر ربما يكون أخطر مما أتصوَّر وأنه من

المحتَّم أن أهرع لتشخيص الحالة، بكل الوسائل الممكنة، وقمت بالاتصال بصديقى الذى هو محامىً فى الوقت ذاته، وطلبت منه مرافقتى خشية أن تتطوَّر الأمور وتحتاج إلى أياد ثالثة ورابعة وخامسة..

وجاء الصديق وذهبنا فى سيارته إلى مجمَّع التحرير، وأنا أجلس مرهقاً منتفخاً وأتنفَّس فى صعوبة، وكل شئ يبدو لى مهتزاً كئيباً أو أنه كذلك فى بلادنا بالفعل، حتى وصلنا إلى هدفنا ودخلنا المجمَّع، وبدأنا فى الصعود إلى قسم جوازات السفر فى الطابق الأوَّل، لتفاجئنى مفاجأة ثالثة فأنا أصعد بصعوبة بالغة وأنفاسى تتقطَّع على نحو ملحوظ، كما لو أننى فى السبعين أو الثمانين من العمر، حتى أننا لم نكد نصل حتى كنت ألهث بشدة وأحتاج إلى اسطوانة أكسجين كاملة للتعويض..

وأصيب صديقى بالفزع وتعامل معى الكل فى تعاطف جميل بشفّ عن الطبيعة الشهمة للشعب المصرى الأصيل، والتى تختفى دوماً خلف سلبيات واضحة ابتكرها الشعب أيضاً ليظهر معاداته لحكومانه المتعاقبة، على نحو يناسب قدرته على التحمُّل وقدرتها على القمع، وانتهى جواز السفر بسرعة ونزلنا وأنا أشد تعباً، و.. وبدأت الرحلة..

* * *

عندما بدأت رحلتى مع المرض كانت معلوماتى كلها، عن عالم الطب والأطباء تقتصر على لقاءاتى مع زملاء وأصدقاء الدراسة فى طنطا، وسنوات العمل والممارسة فى مستشفياتها والسلبيات والتجاوزات التى رصدتها والتى بدت لى آنذاك، وكأنها ذنب كبير وجرم لا يغتفر إلى الحد الذى دفعنى

www.dvd4arab.com

إلى الاستقالة..

ولكن منذ اليوم الأوَّل صدمتنى حقائق. أكَّدت لى أن ما رأيته قديماً جحيماً كان النعيم بعينه والنزاهة المجسَّمة بالنسبة لما آل إليه الحال الآن. فقد ذهبت إلى عيادة تحمل اسم طبيب شهير لم يجذبنى إليها سوى قربها الشديد من مجمَّع التحرير. ولافتتها التى تشير إلى أن صاحبها من أكبر الأكابر فى أمراض القلب والشرايين..

لم يكن الطبيب قد وصل بعد فحجزت دوراً لتوقيع الكشف. وجلست أنتظر وأنفاسى تأبى أن تهدأ أو تستقر ولما كنت قد اعتدت ألا أشير إلى كونى طبيباً فى العيادات الخاصة حتى لا يصاب الأطباء بالفزع. ويتصوَّرون أن إعلان هذا هو تمهيد لطلب استثناء أو كشف مجانى. وما يعقب هذا - فى المعتاد - من معاملة جافة خشنة وربما قاسية أيضاً. فقد جلست صامتاً أنتظر مع الباقين حتى وصل الطبيب بعد أربع ساعات من الموعد المعلن فى لافتة عيادته. ووصل عاقداً حاجبيه قالباً سحنته أقرب إلى الغضب. شلولخ (على رأى الأستاذ الكبير عادل إمام). وكأنه قادم إلى عيادة مجانية ليعالج فقراء متسولين يمدون أيديهم إليه. واندفع نحو حجرة الكشف كالصاروخ حتى لا يستوقفه أحد. ويلقى عليه سؤالاً يمنحه استشارة مجانية دون وجه حق..

وعلى الرغم من ازدحام العيادة راحت الكشوف تدخل وتخرج سرعة وكل مريض يبدو وكأنه لم يحصل على مبتغاه حتى حان دورى بعد ست ساعات من الانتظار. ودخلت للباشا الطبيب الكبير لأخبره بحالتى وأنا ألهث على نحو ملحوظ. وربما أشفق على حالى فلم يستمع إلى شكواى حتى لا يصيبنى

بالملل. واستدعى الممرض وأخبره أننى أحتاج إلى رسم قلب عادى وآخر بالمجهود وتحاليل وفحوص خاصة. أجريها فى معمل مجاور يحمل اسماً نسائياً. علمت فيما بعد أنه اسم زوجته ثم أمسك ورقة وكتب أسماء وأنواع التحاليل.. وتوالت المفاجآت..

* * *

نصف التحاليل والفحوص التى طلبها الطبيب الكبير. لم تكن تتفق أو حتى تتناسب مع تشخيص أى مرض بالقلب. ولكن من المؤكَّد أنها كانت تساوى مبلغاً ضخماً سيربحه معمل الزوجة. ثم أنه لم يجر فحصاً طبياً واحداً أو حتى يسمع تاريخى المرضى المزمن. أو تاريخ الحالة نفسها قبل أن يعمد إلى طلب تحاليل باهظة الثمن إلى هذا الحد. فكل ما رآه أو عرفه هو أننى كاتب معروف. ويمكننى تحمُّل ثمنها مادياً أو ستكون هناك جهة تتحمَّل هذا حتماً.. فلم لا؟!..

كان ممرض العيادة يقودنى إلى المعمل عندما أخبرته أننى أفضِّل معملاً آخر. لى معه تجارب سابقة فأصيب الممرض بالهلع. وأخبرنى أن هذا مستحيل! فلما سألته لماذا ؟ أخبرنى أنها تحاليل وفحوص عاجلة للغاية ولابد من إجرائها فوراً ولم أعلِّق على كلماته. ولكننى كنت أعرف بحكم شهادتى وخبرتى الطبية أن بعض هذه المطلوبات سيستغرق أياماً. أو يوم كامل على الأقل لذا فقد أخبرته بما يمكن أن يفهمه. ألا وهو أننى لست مستعداً مادياً لعمل تلك التحاليل والفحوص الآن. ولكنه ازداد تشبثاً وأكَّد لى أنه يمكننى دفع عربون بسيط والباقى عند الاستلام. دون أن يدرك أن هذا يتعارض مع ما ذكره مسبقاً عن ضرورة سرعة اجرائها..

واعتذرت وهربت بالكاد وقررت إعادة الكشف الذى لم

Looloo
www.dvd4arab.com

يتم فعلياً. عند طبيب آخر لتتكرَّر الصورة نفسها مع استثناء طلب فحوص أكثر ثمناً. وفى معمل كبير معروف وهنا أدركت أن الاستمرار فى هذه الدائرة قد يؤدى بى إلى الوفاة! قبل أن يتم تشخيص حالتى فعلياً. ولابد من كسرها بأى ثمن.. وهنا قفز إلى ذهنى الحل المثالي فزملاء الدراسة كلهم أصبحوا أطباء كبار فى القاهرة والإسكندرية وطنطا. فلماذا لا أعود إلى أقربهم ليستمع إلىَّ ويمنحنى تشخيصاً أثق فيه على الأقل. وعلى الفور وقبل حتى عودتى إلى منزلى اتصلت بصديق وزميل الدراسة الدكتور عاصم غلاب. وطلبت منه ترتيب الأمور حتى أصل إلى طنطا فى الصباح التالى. وبالفعل وصلت لأجد عاصم فى انتظارى وهرع بى إلى صديقنا الدكتور مدحت عشماوى فى مركز القلب. وبدأ كل شئ على الفور بكل اهتمام وعناية لأتلقَّى على وجهى وعبر أذنىّ صدمة جديدة.. وعنيفة.

* * *

فور وصولى إلى مركز القلب استقبلنى الزميل الأستاذ الدكتور مدحت عشماوى وطلب منى أن أشرح له الحالة بالتفصيل ثم بدأ الكشف الطبى فوراً. وهاله أن يجد ضغط دمى مرتفعاً إلى حد مخيف حتى أنه لو كنا قد تأخرنا فى التشخيص يوماً واحداً لكانت العواقب وخيمة وربما دائمة وغير قابلة للعلاج أيضاً. وهذا دليل آخر على ما يكن أن يمكن أن يؤدِّى إليه الاستهتار والفساد الطبى فى تاريخ وصحة وحياة أى إنسان. ولكن المهم أن الفحوص والتحاليل بدأت على الفور ووفق نظام طبى دقيق وتم استدعاء زميلنا الدكتور هشام نوح لعمل الموجات الصوتية اللازمة على القلب والأحشاء؛ للاطمئنان إلى أن هذا الضغط الرهيب لم يؤذها بعد ثم بدأ

العلاج فى دقة وجرعات منتظمة.

وتصوَّرت أن حالتى هى انعكاس للارتفاع الشديد للغاية فى ضغط الدم وحاولت مراجعة ما تبقى فى ذهنى من معلومات طبية قديمة لربط الحالة بالتشخيص. إلا أننى عجزت عن هذا تماماً ولكننى كنت واثقاً من أننى الآن فى أرضى وأن زملاء وأصدقاء الدراسة سيقومون بكل ما يلزم. وأننى سأحصل لديهم على ما لا يمكن أن أحصل عليه من النظام الطبى السائد..

كان القلق واضحاً على وجوه الجميع لسبب لم يذكره أحد منهم. وحاولت سؤالهم عنه إلا أنهم وعلى عكس طبيعتهم تحفظوا فى الإجابة. على نحو ضاعف من قلقى وأشعرنى أن حالتى تتجاوز ارتفاع ضغط الدم بكثير وأنها حتماً تندرج فى مضمار آخر تماماً. ولزمت صمتاً مبهوتاً منتظراً النتائج ..

وبسرعة وصل الزميل الأستاذ الدكتور هشام بدرة وراجع الأمور والنتائج كلها. وعقد الزملاء كونصلتو طبى خاص ثم انتخبوا مدحت ليواجهنى بالجزء الأوَّل وهو يخبرنى أنهم يستطيعون منحى روشتة علاج عاجل وآخر ممتد المفعول ولكنه يرى أنه من الأفضل أن أقضى يومين أو ثلاثة فى قسم العناية المركَّزة..

كانت لديّ العديد من الارتباطات ولكننى كنت أعانى بالفعل من تدهور صحى. جعلنى أقبل بنصيحتهم فأعدت ابنى الذى كان يصحبنى. إلى منزلنا فى القاهرة ورقدت أنا فى قسم العناية المركَّزة فى مركز القلب فى طنطا..

وفى المساء وبينما أرقد وأنابيب التحاليل تتصل بجسدى

Looloo
www.dvd4arab.com

جاء الصديقان، عاصم غلاب وهشام بدرة، ليمنحاني المفاجأة الكبرى..

* * *

كليتيَّ توشكان على الانهيار.. هذا هو التشخيص الذى صدمنى به زميلا الدراسة وكلاهما متخصِّص فى هذا المجال، ومع مراجعة الفحوص والتحاليل أدركت أنه تشخيص حقيقى وسليم للغاية، فضغط الدم المرتفع كان انعكاساً للانهيار الكلوى، والانتفاخ الشديد نتيجة لعجز الكليتين عن تصريف المياه الزائدة عن الجسم، ولإسرافى فى تناول البروتينات والبيض بالتحديد..

كانت صدمة شديدة ولكن كان عليَّ تقبُّلها على أى نحو كان، وسألت الزميلين عن وسائل العلاج المتاحة فأخبرنى هشام أنه سيمنحنى علاجاً مدعماً يكفى لإطالة الفترة ولكنه لن يمنع انهيار الكليتين فى النهاية وأنها مسألة وقت فحسب، وتلقيت العلاج فى الليلة نفسها مع حظر كبير للخضروات والبروتينات بأنواعها مما أشعرنى بحيرة شديدة فبحكم إصابتى بمرض السكَّر هناك خطر عليّ من تناول الحلويات والنشويات، ومع الانهيار الكلوى أضيفت إليها البروتينات والخضروات والفواكه فماذا يمكن أن آكل إذن؟!..

طرحت السؤال على الزميل هشام فأعطانى ورقة مطبوعة تحوى تفاصيل تغذية مريض الانهيار الكلوى وطلب منى الالتزام بها بمنتهى الدقة وعلى الرغم من أن هذا أمراً عسيراً للغاية، قرَّرت تنفيذه على أى نحو كان حتى أطيل فترة الوصول إلى الانهيار إلى أقصى حد ممكن قبل أن تتحوَّل إلى فشل كلوى تام..

وخرجت من العناية المركَّزة فى وقفة عيد الأضحى الذى لم أتناول فيه قطعة لحوم واحدة بالطبع، على الرغم من أنها ربما تكون المناسبة الوحيدة التى يشبع فيها المصريون من أكل اللحوم التى وعدت الحكومات المتتالية بالسيطرة على أسعارها، ولم تفعل واحدة منها ربما لأن السادة الكبار لا يعانون هذه المشكلة على الإطلاق، أو أنهم قد نسيوا أنهم يحكمون شعباً فقيراً من فخامة وبذخ ما يحيط بهم فى حياتهم اليومية والخاصة..

المهم أننى تابعت هذه الحياة لشهر كامل وانتظمت فى زيارة الدكتور هشام ليشرف على تطوّر الحالة، قبل أن يجول بخاطرى سؤال شديد الأهمية ألا وهو: ماذا عن المرحلة التالية؟!.. فما دام الفشل الكلوى نهاية حتمية فكيف أستعد لمواجهته؟!.. وأخبرنى هشام ما لا أتوقَّعه.. على الإطلاق..

* * *

عندما سألت زميلى هشام بدرة عن وسيلة التعامل مع الفشل الكلوي أخبرنى أنه ليس هناك سوى خيارين لا ثالث لهما، فإما أن أخضع لجلسات غسيل كلوى منتظمة تبدأ بجلستين ثم تستقر عند ثلاث جلسات أسبوعية مدة الجلسة الواحدة تتراوح بين ثلاث وأربع ساعات أو أن أجرى جراحة زرع كلي تعيد إلى الجسم انتظامه وتوازنه..

وخرجت من عند هشام لأقوم بدراسة الأمر من كل جوانبه أوَّلاً قبل أن أتخذ فيه قراراً حاسماً، واعتبرت أن الأشهر الستة التى تحتاج إليها كليتيَّ لبلوغ مرحلة الفشل التام هى المهلة المتاحة لبلوغ العلاج الحاسم فى هذا الشأن وعدت إلى مكتبى وجلست أمام شبكة الإنترنت للبحث عن كل ما نشر

Looloo

من أبحاث ودراسات حول حالتى، مما يساعدنى على اتخاذ القرار..

والواقع أن ما وجدته على شبكة الإنترنت قد هالنى للغاية فمن بين دول العالم تحتل مصر بثلاثة ملايين مريض فشل كلوى فى العام الواحد فى نسبة تعد الأعلى بين الدول المساوية لها (ليس فى الديمقراطية الزاهية بالطبع)، وأن معظم هذه الحالات يتم كشفه بالمصادفة البحتة وينشأ عن ارتفاع ضغط الدم المستمر بشكل أكبر، وأن هذا الفشل يتطوَّر بسرعة نظراً لسوء اختياراتنا الغذائية ونوعيات الأطعمة لدينا وأهمها المخللات بأنواعها والبروتينات..

وعملية الغسيل الكلوى تقليدية ومنتشرة على نطاق واسع، ولكنها لا تكفى وحدها لعلاج المريض الذى يصاب مع فشل كليتيه بنقص حاد فى الهرمون المسئول عن تكوين كرات الدم التى تحوى مادة الهيموجلوبين، مما يصيب المريض بأنيميا حادة تستلزم عمليات نقل دم مستمرة مع كل ما يستتبعه هذا من احتمالات العدوى بعدد من الفيروسات الدموية، مثل فيروس سي أو ما خفى، كما ترتفع نسب البوتاسيوم ويحتاج المريض إلى جرعات عالية من الكالسيوم..

أما عمليات زرع الكلى فقد تطوَّرت على نحو مدهش وأصبحت نتائجها ممتازة ووسائل التعامل معها ممكنة، وتعيد إلى الجسم توازنه مع نقص البوتاسيوم وتحسُّن حالة الأنيميا..

ولم يعد الأمر يحتاج إلى كثير من التفكير فعدت إلى هشام، وأخبرته أننى أفضِّل إجراء عملية زرع كلى.. ومن هنا بالتحديد، بدأت التجربة..

* * *

زرع الأعضاء البشرية ليس بالأمر الجديد بالنسبة

للعالم المتحضِّر؛ فقد ألقاه الدكتور كرستيان برنار فى قلب دائرة الضوء فى سبعينات القرن العشرين مع جراحة ناجحة لزراعة قلب بشرى من متوفى إلى حي يعانى من انهيار تام فى عضلات القلب ليثبت بهذا إمكانية تطبيق ما ظل لأكثر من عقدين مجرد نظرية، ومنذ ذلك الحين ودون توقف لحظة واحدة انطلق علماء العالم يستفيدون من تجربة برنار، ويدرسونها ويضيفون إليها وزراعة الأعضاء تتطوَّر بسرعة الصاروخ ، حتى لم يطلّ القرن الحادى والعشرين إلا وكانت زراعة معظم أعضاء الجسم أمراً ممكناً، من الرئة إلى الكبد إلى المثانة إلى الكلى، بل وحتى بعض الأعضاء الخارجية فحلم الأطباء يتعدَّى الحدود والعلماء بطبعهم لا يؤمنون بالمستحيل، ويتصورون أنه بعد عشر سنوات من الآن سيمكنهم زراعة أذرع وسيقان تعمل على نحو طبيعى وتلقائى، لمن فقدوا أطرافهم فى الحروب أو الحوادث..

وكرد فعل شعبى فى كل أنحاء العالم (باستثناء الدول العربية وأفريقيا) ولأن الناس أدركت ما فى هذا من فوائد للكل راح الناس يتسابقون للتبرع بأعضائهم بعد موتهم طمعاً فى استمرار حسناتهم بعد فنائهم، وبدا لهم وكأنها وسيلة جديدة لإطالة أعمارهم وأعمار من يهبونهم تلك الأعضاء حتى أن بعض الدول أصبحت تمنح المتبرعين بالأعضاء بطاقة خاصة تحدِّد ما تبرعوا به أو تدوِّن هذا على ظهر رخصة القيادة، توفيراً لكل دقيقة إذا ما أصيب أحدهم فى حادث، حتى يمكن نقل العضو المطلوب قبل أن يتعرض للتلف..

كان هذا يستلزم تسجيل الاسم والعضو المطلوب وعمل تحليل كامل للأنسجة وتسجيله على الكمبيوتر،

toofoo
www.dvd4arab.com

والانتظار فى قائمة طويلة ليحصل كل على دوره عندما تتوافر أعضاء من شخص بمثلك التوافق النسيجى المناسب. ولما كانت حالة البعض لا تحتمل الانتظار فقد لجأ بعض أقاربهم أو معارفهم للتبرّع لهم بالأعضاء التى يمكن للأحياء منحها. مثل الكلى وأجزاء الكبد. وظلّ هذا يعتمد على عامل واحد لا غير. ألا وهو التوافق الدموى والنسيجى بين المانح والمستقبل. هذا ما يجرى فى العالم كله وما تحتمه سنة وسرعة التطوّر فى العصر الحديث الذى بلغ إيقاعه خواً لم يبلغه عبر التاريخ كله..

أما فى عالمنا العربى. فالأمر مختلف كما يختلف كل شئ والكارثة كبيرة.. جداً..

* * *

فى العالم كله تعتبر زراعة الأعضاء أمر علمى بحت. ولكن فى عالمنا العربى وفى مصرنا البائسة. تخوّل العلم بقدرة قادر إلى مسألة فقهية وشرعية. وراح الشيوخ والعلماء الأفاضل الذين هم حجة فى مجالهم ولا يفقهون شيئاً فى العلم والطب يفتون فى أمرٍ أمرنا الدين نفسه بأن نسأل عنه أهل الذكر إن كنا لا نعلم. وأنا أتحدّى أن يعلن فقيه واحد مهما بلغت مكانته. أنه يعلم ما يعلمه العلماء والأطباء حتى لو ادّعى أنه قرأ كتاباً أو كتابين أو حتى مرجعاً كاملاً فى الطب فالعقل والمنطق يؤكدان أنه من يعمل ويدرس أكثر يفهم أكثر فى مجاله. وكلنا نعلم هذه الحقيقة ونثق فيها تماماً فى كل المجالات الأخرى دون استثناء. فلا أحد يستأجر طبيباً لبناء منزله مجرّد أنه قرأ مرجعاً فى الهندسة ولا أحد يجرؤ على علاج ابنه لدى مهندس شهير. فقط لأنه يقرأ كثيراً فى الطب بل وحتى فى المهن الحرفية لا نستأجر سباكاً لإصلاح الكهرباء ولا نجاراً لتسليك المواسير..

كلنا إذن ندرك هذا. ولكننا نصل إلى منطقة الدين فيختلّ منطقنا وتهتز قناعاتنا ونرتبك. وننكمش. وتخشى مجرّد إبداء الرأى بل ولا نحاول سؤال أهل الذكر. الذين ليسوا الفقهاء أو الشيوخ أو الدعاة حتماً بل العلماء والأطباء الذين عليهم إجابة سؤال واحد بسيط. أهذا نافع أم مضرّ. حتى يمكن تطبيق القاعدة الأبسط التى نؤكّد أن كل ما ينفع الأمة حلال وكل ما يضرّها حرام..

والحكومة من جانب آخر. ليس لديها معيار واضح واحد محدود لتقييم كل الأمور ففى الوقت الذى قلبت به الدستور رأساً على عقب وانتزعت منه فى أسابيع قليلة. كل المواد المانعة للحربات ووجدت أغلبية فاسدة منتفعة تجيز لها هذا فى أيام. ما زالت تتلكأ لسنوات وسنوات فى إصدار قوانين حيوية ربما تساهم فى تحسين أحوال الشعب ورفع مستوى معيشته أو توفير جزء من الحياة الكريمة له. ومنها قانون زراعة الأعضاء الذى يدور فى المجلس الموقّر منذ سنوات دون أن يتحفنا رئيسه بمقولته الشهيرة. موافقون؟ اذن. موافقة ! والتى يحسم بها أمور قادرة على تدمير اقتصاد البلد كله فى دقيقة واحدة ودون أن تطالب الأغلبية التى استمرأت الفساد وغرقت فيه حتى النخاع ولم تعد تعرف سواه باتخاذ موقف.. وهذا كاد يكلفنى حياتى.. وبعنف.

* * *

عندما يتعلّق الأمر بقانون جديد لصالح الشعب أو فئة من فئاته. تتأخّر الحكومة وتتلكأ كثيراً فى إصداره وحجتها دوماً أن الأمر شديد الحساسية وأنها تخشى من ردود الأفعال فإذا ما كان هذا الأمر يتعلّق بمصالحها وتزايد غناها. وطغيانها وكبتها

www.dvd4arab.com

للحربات أو لو ثار القضاة وتضامنوا أو تظاهر الناس من أجل كرامتهم وأمنهم، فلا مانع عندئذ من التصدّى للأمور بمنتهى القوة والعنف والشراسة وضرب القضاة وأعضاء مجلس الشعب أنفسهم بالأحذية حتى تستمر السلطة والسطوة ويتمادى الغى والطغيان..

من هذا المنطلق، لم تصدر الحكومة قانون زراعة الأعضاء حتى لحظة كتابة هذه السطور وربما أيضاً من منطلق أن الكبار لن يعانوا من هذه المشكلة أبداً فكل شئ تحت أمرهم، وكل العقبات مزلّلة ولو احتاج أحدهم أو أحد أبنائه أو معارفه إلى عضو ما، فالشعب كله رهن إشارته والعلاج بالخارج مكفول لكل قريب ونسيب وحسيب للسلطة..

وعندما بدأت رحلة زراعة الكلى لم أكن أدرك ما يواجهني ولا ماذا يدور فى دهاليز ذلك العالم الرهيب الذى تحوّل إلى أكبر تجارة فى مصر على المستوى الشعبى، والذى يحاول الكل الإشاحة بوجهه عنه والتظاهر بعدم رؤيته وتركه يستشرى دون قانون ينظمه ويحميه ولكننى استشرت الزملاء المتخصصين فأفتونى بأسماء عدة معامل تحاليل تتخذ من هذا الأمر مصدر دخل رئيسي ووسيلة لتحقيق أرباح هائلة، من المؤكّد أن الدولة بأجهزتها الرسمية المعنية لا تدرى شيئاً عنها، ولما كانت الأمور معقدة ومتشابكة فى مصرنا المسكينة كان حتماً أن أبدأ التجربة من بدايتها وأن أنتقى أفضل تلك المعامل وأكثرها احتراماً والتزاماً للبحث عن أهم عامل (علمياً) فى التجربة كلها، ألا وهو المتبرّع الذى تتوافق أنسجته مع أنسجتى والذى يصلح لمنحي كليته..

وذهبت إلى المعمل وشرحت لهم الأمر الذى اعتادوه

وألفوه فحصلوا على عينة من دمي لإجراء اختبارات التوافق، واتفقنا على بعض التفاصيل الهامة وتصوَّرت أن الأمر قد انتهى وأنه لم يتبق سوى العثور على المتبرّع المناسب وإجراء الجراحة، ولما كانت أعداد المتبرعين تفوق أعداد الطالبين بكثير كما عرفت من أبحاثى السابقة بدأت أشعر بالارتياح ولكن المعمل كان له شرط عجيب.. للغاية..

* * *

اشترط المعمل الذى لجأت إليه للبحث عن متبرّع أن أقوم بنشر إعلان فى الصحف أطلب فيه متبرعاً من فصيلة دمي ولقد فهمت سبب هذا الشرط على الفور فهو يؤمّن المعمل من أية شكاوى قانونية مستقبلية لاعتبار أنه لا يعمل سمساراً وإنما يلبي طلب معلن أرسل إليه متبرعين جاءوا عن طريق رسمى، وفى الوقت ذاته يمنحه فرصة الحصول على أعداد أكبر من المتبرعين وفحص دمائهم وخلاياهم على نفقة المريض والاحتفاظ بسجلاتهم التى تتضمن كل بياناتهم ووسائل الاتصال بهم، على الكمبيوتر فى المعمل لتغذية أية حالات تالية..

لعبة مدروسة بمنتهى الدقة والعناية وتستخدم أحدث الوسائل والتكنولوجيا كالمعتاد فى كل الأمور التى تدور تحت السطح، حتى ليخيَّل لنا فى النهاية أن الحكومة وحدها هى التى تفتقر إلى التفكير المنظم المرتَّب (الحكومة الإليكترونية طبعاً)، المهم أننى تقبَّلت الشرط وذهبت إلى جريدة كبرى لعمل الإعلان وهناك فوجئت باستنكار شديد، وذعر لا مبرّر له وواجهنى أحدهم فى صرامة مؤكّداً أن نشر مثل هذه الإعلانات محظور إلا بموافقة خاصة من وزارة الصحة وفوجئت بأن الرجل

www.dvd4arab.com

يتعامل معي باعتباري أحد سماسرة تجارة الأعضاء أو مافيا الفشل الكلوى حتى أنه لم ينهض لمصافحتي وأنا أنصرف..

ومن الجريدة الكبرى إلى جريدة صغرى تكرَّر الأمر. فلجأت إلى جريدة إعلانية شهيرة توزَّع بالمجان فأخذوا الإعلان وتقاضوا ثمنه وأخبرونى أنه سينشر فى الجمعة القادمة وتصوَّرت بهذا أن مشكلة شرط الإعلان قد انتهت، وأن الأمور ستأخذ مسارها الصحيح اعتباراً من هذه النقطة. ويوم الجمعة التالى انتظرت نشر الإعلان وبحثت فى كل صفحات الجريدة عنه ولكننى لم أجد له أثر واتصلت بالجريدة فأخبرنى المسئول أن الباب الذى من المفترض أن ينشر الإعلان فيه لم يتواجد فى هذا العدد وأن الإعلان سينشر فى الجمعة التالية..

وبفارغ الصبر انتظرت الجمعة التالية، ولأوَّل مرة رحت أترقَّب وصول الجريدة الإعلانية فى لهفة. فلم يكد مندوب توزيعها على الحيّ يصل حتى اختطفتها منه والتهمت صفحاتها فى شغف.. لكنني لم أجد الإعلان فعاودت الاتصال بالمسئول ليلقى على مسامعى مفاجأة.

* * *

بعد أسبوعين من الانتظار فوجئت بمسئول الجريدة يخبرني أن الإعلان لن ينشر وأنه علىَّ أن أذهب إلى المقر الذى قدَّمته فيه لاسترداد المبلغ (بالمناسبة استرديت المبلغ بعد ما يقرب من ثلاثة أشهر وست زيارات) وعندئذ شعرت ببأس سخيف فالأمور كلها تعقَّدت وتشابكت وأصبحت كل مشكلة مرتبطة بأخرى.. المشايخ الأفاضل خالفوا قاعدة سؤال أهل الذكر وأفتوا دينياً فى أمور علمية بحتة فأثاروا فزعاً لا مبرِّر له وجعلوا الكل يتحاشى مجرد الخوض فى الأمر. ليتحوَّل العلم إلى جريمة يحاول

كل شخص التنصُّل من المسئولية فيها..

تعالوا نتصوَّر أن مشايخ زمان ساروا على النهج نفسه عندما قدمنا الملك فرنسا شارلمان أول ساعة وأفتوا بأن الوقت ملك للهّ سبحانه وتعالى وحده، أو أن أحدهم قد دس أنفه فى أبحاث ابن النفيس وأكَّد أن العبث بالدم البشرى حرام حرام، تصوَّروا ما كنا سنصبح عليه حينئذ!!..

ولكن من الواضح أن مشايخ زمان كانوا أكثر حكمة وأكثر معرفة بالدين الحنيف الذى يطالبني بالعلم والتطوّر وبالسعى خلفه ولو فى الصين. أما اليوم فلم يعد لهم من همّ سوى تعقيد الحياة والإثقال على العباد بقواعد وأوامر ونواهى لا حصر لها كما لو أنهم قد كشفوا وجود الدين الإسلامى فجأة فى العقدين الأخيرين. أو كأن اللهّ عزَّ وجلَّ لا يحاسب من يعذِّب الناس أو يمنع عنهم منفعة. المهم أن تجربتى مع الجريدة الإعلانية جعلتنى أتصوَّر أن إيجاد متنفَّس عبر معمل محترم أمر بعيد المنال فى نظامنا البيروقراطى العتيد. وربما كان من المحتَّم أن أبحث عن سماسرة المتبرعين الذين أثروا ثراءًا فاحشاً من تجارة ما زالت محظورة إنسانياً على الأقل..

وبدأت جولة جديدة من التجربة وبدأت فى جمع خبرات عن أولئك السماسرة ومن المدهش أن هذا لم يكن عسيراً على الإطلاق فقد وجدتهم معروفين للجميع فيما عدا السلطات الرسمية بالطبع ولهم أماكن واضحة وخريطة توزيع منظمة وذهبت إلى أحدهم فى مقهى شعبى، ووجدت الأمور تتم كما لو أننى قادم لشراء مخدرات. أسئلة، واستجوابات، وحذر، ونظرات مستريبة، ومحاولات إيقاع، استغرقت ما يقرب من الساعة قبل أن يطمئن السمسار إلى أننى لست من رجال الشرطة والمباحث

www.dvd4arab.com

فسألنى عن فصيلة دمي وبعدها رأيت ما هالني.. بشدة..

* * *

مسكين أنت يا شعب مصر فسق مترفوك وعاثوا فيك الفساد ثم تزاوجوا مع السلطة فتجبَّروا وتكبَّروا وانتزعوا اللقمة من بين فكي الفقراء، فبت جائعاً، عارياً، مهضوماً، والفاسدون من داخلك يعيشون فى قصور يكفى ثمن الواحد منها لمحو فقر مدينة كاملة..

ربما أعرف هذه الحقيقة منذ زمن طويل ولكننى لم أرها أمام عينىَّ بهذه البشاعة إلا فى ذلك المقهى وأنا أجلس مع سمسار الكلى. فما أن عرف فصيلة دمى حتى رفع صوته يطلب أصحاب تلك الفصيلة وهنا فوجئت بأنه باستثنائي وزبونين أو ثلاثة فكل الجالسين على المقهى من المتبرعين الذين ينتظرون دورهم لمنح كليتهم إلى من يدفع ثمنها وكل أملهم أن يمنحهم هذا ما يعينهم على حياة كريمة، أو يسد رمقهم فى شتاء طويل..

وجوه شاحبة، نحيلة، ممصوصة، حفر البؤس ملامحه عليها فى وضوح فبدت أشبه بهياكل بشرية تسير على قدمين. وما أن هتف بهم السمسار حتى هرولوا باسمين وكل منهم يتمنى أن يكون المحظوظ الذى يقع عليه الاختيار هذه المرة، فيخرج من قاع الفقر إلى فقر أقل ضراوة..

أفزعتنى الصورة، وأدهشتنى، وأنا الذى كان يتصوَّر أن المشكلة كلها تكمن فى المتبرِّع وكما يحدث فى سوق العبيد راح السمسار يستعرض بضاعته ويخبرنى مزايا كل متبرِّع وأخرج ورقة كبيرة من جيبه وراح يقرأ ومع كل حرف ينطقه كانت تسيطر علىَّ مشاعر عديدة هى مزيج من الشفقة والاشمئزاز،

والغضب، والعار.... كيف يمكن أن يبلغ شعبنا هذا الحد فى دولة تتبجح طوال الوقت بديمقراطيتها، وحريانها، ورعايتها لشعبها المسكين..

دولة انشغلت بحكامها وكبارها وشاركت المترفين فسقهم فنسيت أنها تحكم شعباً سيحاسبها الله (سبحانه وتعالى) على كل قطرة دم أريقت منه وإن كنت واثقاً من أن أولئك لا يفكرون لحظة فى آخرتهم أو فى وقوفهم أمام ربٍّ كريم وربما يتصوَّرون أنهم أول من سيكسر ثوابت الوجود، ويهربون من موت سيأتيهم ولو فى بروج مشيَّدة أو الأدهى أنهم يتصوَّرون أنفسهم على حق، أو أنهم سيتمتعون فى الآخرة بنفس السلطة والسطوة والجبروت الذين يتمتعون بهم فى الدنيا.. المهم أننى مع ما رأيت اتخذت قراراً.. حاسماً..

* * *

على الرغم من حالتى الصحية التى كانت تتدهوَّر باستمرار ومن التورّم الشديد فى قدمىَّ والذى يعجزنى كثيراً عن المشي، ومن محاولاتى الدائمة المرهقة للتماسك أمام الآخرين، ما أن رأيت تلك الصورة البشعة لشعب مصر الذى يبيع لحمه من أجل لقمة العيش اتخذت قراراً حاسماً، ألا وهو أننى لن أتعامل مع السماسرة ومتبرعيهم مهما كان الثمن ومهما كانت النتائج..

ومرة أخرى عدت إلى مشكلة الإعلان التى بدت وكأنها بلا حل، وانشغلت بالبحث عن حلول مع الصحف القومية، حتى أننى نسيت أن هناك صحف أخرى وهنا طرحت الأمر على الصديق إبراهيم عيسى الذى فوجئ بأمر مرضي وإن أخبرني كما يحدث فى الأفلام البوليسية أنه كان يتوقع هذا مع

laaloob

الشحوب الشديد فى وجهي والإرهاق البادي علىَّ دوماً، ثم خرَّك بمنتهى السرعة والشهامة كعادته وتم نشر إعلان صغير خلال الأسبوع نفسه..

ولا أحد يمكنه أن يتصوَّر كم أراح هذا من عبء عن كاهلي وإن منحنى فصلاً جديداً من كتاب فقر وبؤس شعب مصر: فما أن ظهر الإعلان حتى انهالت مكالمات المتبرعين فى غزارة لم نكن نتوقَّعها ولما كانت زوجتى هى التى تستقبل مكالماتهم فقد أرهقها هذا بشدة خاصة وأن السؤال الأوَّل لمعظمهم هو كم سندفع مقابل الكلية ولكن هذا لا يمنع من أن اتصالات عديدة كانت تعرَّض التبرُّع من أجل وجه الله (العزيز الحكيم) فحسب، وابتغاء مرضاته، والتصدُّق بصدقة جارية..

وكل متبرِّع كان لابد من إرساله إلى المعمل على نفقتي بالطبع لعمل التحاليل والفحوص اللازمة من أجل توافق الأنسجة، مما كان يعنى استنزافاً مالياً عنيفاً أجبرنا على تخفيض نفقاتنا المنزلية والبحث عن موارد جديدة لتغطية المطلوبات اليومية، التى أضيفت إليها أدوية باهظة الثمن إلى حد مخيف لم أكن أيضاً أتصوَّره أو أتوقَّعه..

كان علىَّ أن أحصل خارجياً على كل ما يفتقده الجسم بسبب الانهيار الكلوى، مثل الكالسيوم والسيليوم، والهيموجلوبين، الذى ينخفض يومياً حتى يكاد يبلغ حالة أنيما حادة..

وفجأة ووسط كل هذا تلقيت مكالمة غيَّرت المسار كله.. تماماً..

* * *

أوَّل مفاجأة سارة أتلقاها منذ بدأت هذه التجربة

القاسية كان خبر العثور على متبرِّع مناسب، وبنسبة توافق كبيرة، وما أن تلقيت اتصال المعمل يبلغنى بهذا حتى طرت إلى المعمل، وأجرينا اختبار توافق والتقيت به ووجدته شاباً هادئاً بسيطاً، وتناقشت معه فى أسباب تبرُّعه، فأجاب ببساطة أنها ثواب وصدقة جارية وارتاحت نفسى للموقف كله أخيراً، وبدا لى أن الشمس الغاربة قد أشرقت والظلمة قد انزاحت وما دامت كل المراجع الطبية تؤكِّد أن المشكلة كلها تكمن فى المتبرِّع ونسبة التوافق فهذا يعنى أن المشكلة قد انتهت، ما دام المتبرِّع موجوداً وبتلك النسبة من التوافق، التى اعتبرها الكل معجزة ورضاء من الخالق عزَّ وجلَّ..

ولكننى، فى تفاؤلى المبكِّر هذا كنت قد نسيت أين أعيش وأننى فى مصر، التى لا تدور فيها أية أمور على نحو طبيعي ولا يمكنك مهما فعلت، أن تفلت من عباقرة التعقيد والروتين ومن القرارات الهمبونية التى يصدرها كل مسئول فى موقعه دون ضابط أو رابط ودون أن يفكِّر لحظة واحدة فى تداعياتها أو فى الجحيم الذى سيسببه للمواطنين الذين ناءت أكتافهم بالمتاعب والمشاكل والهموم ولا أحد يفكِّر قط فى راحتهم أو سلامتهم أو أمنهم، بل كل ما يشغل أى مسئول فى بلدنا هو الحفاظ على مقعده ومنصبه وامتيازاته.. بل وتجاوزاته أيضاً، حتى ولو كان الثمن دماء تراق بلا رحمة أو شفقة..

فالبيروقراطية عندنا لها شكل خاص، يعتمد على غياب العقل وانعدام الفكر والقوانين كثيرة، عديدة، متشابكة، ومتضاربة، والقرارات تصدر دوماً فى لحظات انفعال وسخونة ثم لا تجد من يزيلها بعد أن تهدأ الأمور حتى لو كانت مصيرية خطيرة، أو معوِّقة، ومن النادر أن تجد قراراً فيه مصلحة عامة لأن

www.dvd4arab.com

معظم القرارات تصدر فى لحظة انفعال، وبسبب قصور فى القوانين فالشعب وحده هو الذى يدفع الثمن بغلب وعذاب وإرهاق وضياع حقوق، والمحتالين وحدهم يجدون سبيلاً للفكاك من تلك الدائرة الرهيبة، وعندما يكشف المسئولون هذا ولأن القوانين تافهة لا تتناسب دوماً مع الخطأ، فكل ما يفعلونه هو إصدار قرارات جديدة لسد ثغرات قديمة ويتعذّب الشعب أكثر، وينجح المحتالون فى كشف ثغرة جديدة وتدور الدائرة.. وهذا ما واجهته مع أوّل مفاجآت بيروقراطستان..

* * *

بعد العثور على المتبرِّع المتوافق تصوَّرت أن المشكلة الأكبر قد تم تجاوزها وأن كل ما ينقص هو بضع إجراءات قانونية ثم يجىء دور عملية الزرع نفسها، ولكن من الواضح أننى كنت واهماً فى نظرتى هذه أو أننى نسيت كوننا فى بلد لم يعد يحترم القانون أو الدستور وصار كل مسئول فى كل موقع فيه يتصوَّر أنه ناظر عزبة أو أنها عزبة أبوه يفعل بها ما يشاء ويسن لها قوانينه الخاصة وقراراته المجحفة دون ضابط أو رابط ودون أن يحاسبه أو يعاقبه أحد على العذاب الذى يسببه للمواطنين، ربما لأن الحكومة نفسها لم تعد تبالى بالمواطنين الذين لا يملكون لها نفعاً أو ضراً ولم تعد تعمل أو تبالى إلا من أجل شخص واحد لا غير هو الذى يقوم بوضعها فى السلطة وعزلها منها أيضاً..

وأوّل ما واجهنى كان تصريح نقابة الأطباء.. كان استخراج تصريح يبيح للمستشفى إجراء جراحة الزرع، يحتاج إلى أوراق عديدة حملها منشور مطبوع يحتلّ صفحة كاملة ولأننى طبيب وأدرك احتمال حدوث تجاوزات عديدة فى هذا

المضمار الذى خوَّل مع تأخُّر صدور القوانين المنظمة له إلى تجارة ضخمة تحكمها مافيا على أعلى المستويات لم أعترض على الأوراق المطلوبة على الرغم من كثرتها فيما عدا بند واحد.. بند يحتّم الحصول من أقارب الدرجة الأولى على ما يفيد عدم استطاعتهم أو رغبتهم فى التبرُّع!!..

وأياً كانت النبة الحسنة التى أضيف بموجبها هذا الشرط فهو غير منطقى وغير عملى على الإطلاق ويدس أنفه فى شئون عائلية وأسرية والتي قد تعانى من بعض المشكلات، فماذا لو أن شخصاً يرغب فى إخفاء مرضه عن أسرته وهذا حقه أو شخص آخر لا تربطه صلات جيدة بأفراد أسرته وأرجو ألا يجيب أحدكم بأن هذا لا ينبغى أن يكون، فالأمر الذى نناقشه طبى بحت وليس جزءاً من حركة إصلاح اجتماعى وذلك الشرط كان وما زال يبدو لى مجحفاً وليس منطقياً وربما ليس قانونياً أيضاً، ولكن لأن المناقشة غير مجدية فقد رحنا نعد الأوراق اللازمة وذهبت شقيقاتى ووالدتى لتسجيل عدم قدرتهم على التبرع فى الشهر العقارى لسبب بسيط للغاية هو أن والدتى وحدها تحمل فصيلة دمى وقد تجاوزت السبعين من العمر، متعها الله سبحانه وتعالى بالصحة والعافية وفى الشهر العقارى كانت فى انتظارهم مفاجأة جديدة..

* * *

التعليمات الواردة لمكاتب الشهر العقارى فى مصر كلها هو عدم تسجيل أى ورقة ذات صلة بموضوع التبرُّع بالأعضاء أياً كان محتواها ومن هذا المنطلق صار تنفيذ شرط نقابة الأطباء مستحيلاً.. أو هكذا تصوَّرت على الأقل..

وفى تلك المرحلة وبينما أحاول البحث عن مخرج جاء من

Looloo
www.dvd4arab.com

يهمس فى أذنى بأنه هناك مستشفى كبير يتبع جهة أكبر. لا يلتزم بالقواعد والقوانين المعمول بها بالنسبة لكافة المستشفيات وأنه لا يحتاج إلى موافقة النقابة لإجراء عملية الزرع. ولما كان العلاج فى ذلك المستشفى الكبير متاحاً لى بعد ما يقرب من عقدين من العمل الشاق تصوَّرت أن هذا هو الحل. واتجهت مباشرة إلى ذلك المستشفى وسجَّلت اسمى وحصلت على رقم كمبيوتر وبدأت رحلة الاستعداد لعملية الزرع..

كان الطبيب المعالج واحداً من عمالقة زراعة الكلى فى مصر مما أشعرنى باطمئنان كبير وجعلنى أمضى فى الفحوص الطبية المطلوبة للمتبرِّع والتى تكلَّفت مبلغاً ضخماً ولكنها أكَّدت أنه المتبرِّع المثالى حتى أن أحد المعالجين طلب منى ألا أخلى عنه، مهما كانت المصاعب ومهما كان الثمن. وفى الوقت ذاته أكملت أنا الفحوص اللازمة استعداداً للجراحة. وكان من ضمنها فحص كفاءة عضلة القلب ولأننى لم أكن أعانى من أية مشكلات قلبية واضحة فقد بدا لى هذا مجرَّد فحص روتينى ذهبت لإجراءه فى معمل شهير..

ولكن النتيجة جاءت مفاجئة للغاية.. فعلى الرغم من غياب الأعراض أشار الفحص إلى وجود متاعب غير محدَّدة فى الشرايين التاجية بالقلب مما يحتِّم إجراء قسطرة تشخيصية ربما تتطوَّر إلى قسطرة علاجية إذا ما استلزم الأمر..

وكانت أوَّل مرة أشعر فيها بالإحباط منذ بدأت هذه التجربة، ليس بسبب ما يعانيه قلبي ولكن لأن الجميع أكَّدوا أنه مع قصور الكلى يتحتَّم أن أجري عملية غسيل كلوي مرة أو مرتين بعد عمل القسطرة للتخلُّص من المادة الصبغية المشعة التى تستخدم خلال عملية التشخيص فقد كان كل

الجهد الذى أبذله من أجل هدف واحد، ألا وهو تفادى رحلة الغسيل الكلوي ولكن أنا أريد، وأنت تريد، والله سبحانه وتعالى يفعل ما يريد وعلى يد الدكتور حازم خميس أجريت القسطرة التشخيصية وكان الرجل بشوشاً مهذباً يتعامل ببساطة مدهشة وبإخلاص شديد، وكان يداعبنى بكلمات لطيفة أثناء عمل القسطرة التشخيصية قبل أن يلقى فى وجهى بصدمة.. عنيفة.. مجدداً

* * *

القسطرة القلبية واحدة من العمليات القليلة التى يمكن إجراؤها والمريض واع ومستيقظ ولأننى طبيب أدار الدكتور حازم خميس المونيتور الذى يسترشد به ليسمح لى بمتابعة التشخيص ورؤية قلبى من الداخل وشرايينه التاجية، ثم سألنى مرة أخرى إذا ما كنت أشعر بأية مشاكل فلما أجبته بالنفي فاجأنى بأن هناك انسداد فى الشرايين التاجية بنسبة ثمانين فى المائة، وأن الأمر يحتاج إما إلى عملية قلب مفتوح أو لعدد من دعامات القلب..

وكان من الطبيعى أن أختار الدعامات التى يمكن تركيبها بالقسطرة نفسها فى نفس الجلسة، وهكذا أضيفت إلى قلبى أربعة دعامات مع بالون توسيع ولم يعد ينقصنى سوى زمارة ليكتمل المولد. وبعد العملية جاء الجزء المؤلم والذى حاولت تفاديه طوال الوقت، ولكن الفرار من المكتوب أمر محال.. وهكذا تم نقلي بنفس الفراش الذى أرقد عليه بعد العملية مباشرة إلى وحدة غسيل كلوي مجاورة..

وهناك وجدت نفسى وقد أصبحت جزءاً من الصورة التى بدت لي مؤلمة ومؤسفة منذ البداية.. عدد من المرضى

Looloo
www.dvd4arab.com

يرقدون على أسرّة وكل منهم مستسلم لجهاز الغسيل الكلوي الذي يسحب الدم من جسده وينقيه عبر فلاتر مختلفة، ثم يعيده إليه مرة أخرى... الوجوه كلها شاحبة مرهقة والأجساد نحيلة مصوصة. ولكن هذه هي وسيلتهم الوحيدة للحياة وبعضهم يجرى عمليات الغسيل الكلوى ثلاث مرات أسبوعياً لعدة سنوات..

ولأوّل مرة، اتصل جسدى بوحدة غسيل كلوي ورأيت دمي ينسحب إليها ثم يعود عبر خرطوم دقيق شفاف، وبدأت معنوياً أهتز، واستسلمت للأمر كما يفعل أقراني واستعنت بالصبر طوال الجلسة، التى استغرقت ثلاث ساعات بدت لى أشبه بثلاثة دهور قبل أن أعود إلى حجرة العناية المركّزة. وأعترف هنا أن الأطباء المناوبين كانوا فى غاية الاهتمام والعناية خاصة وأنهم جميعاً تقريباً كانوا من قرائي الدائمين حتى أنهم اهتموا جداً بالتخفيف من الأمر و الإطمئنان علىّ كل ساعة تقريباً حتى غادرت المستشفى فى اليوم التالي..

كان إجراء القسطرة العلاجية يحتّم تأخير جراحة الزرع لشهر كامل على الأقل. لذا فقد قرّرت الانتظار فى صبر لولا أنه فى اليوم التالى مباشرة كانت فى انتظاري صدمة.. جديدة

* * *

منذ بدأ جهازى الكلوي فى الانهيار كانت كليتاى قادرتين على إخراج كمية معقولة من الماء والسموم، على الرغم من أن القسم الأكبر كان يختزن فى خلايا جسدي وينفخها على نحو مرهق ومؤلم. ولكن عقب عملية القسطرة القلبية وعلى الرغم من إجراء غسيل كلوى بعدها توقّف خروج البول تماماً. يومان كاملان لم يخرج فيهما جسدى قطرة واحدة، فبدأ ينتفخ

وتثاقلت قدماي وبدا وكأن الكليتين قد توقفتا تماماً وأصبحت هناك حتمية لإجراء عمليات الغسيل الكلوي التى حاولت تحاشيها.. وبالفعل بدأت وزوجتى فى البحث عن مركز أو مستشفى قريب لمتابعة جلسات الغسيل، وشعرت عندئذ أنه ليس هناك مهرب من المكتوب بالفعل واستسلمت لمصيري تماماً..

ولكن فى اليوم الثالث ودون مقدمات عادت الكليتان لطرد كميات ضئيلة من الماء والسموم تزايدت تدريجياً، حتى بلغت المعدّل السابق قبيل إجراء العملية تماماً مما يعنى أننى لست مضطراً بعد لإجراء جلسات الغسيل الكلوى. ولا أحد يمكنه أن يتصوَّر كم شعرت بالارتياح، مع هذا التطوّر مما ساعدنى على احتمال فترة الشهر التى يحتاجها استقرار الدعامات قبل الشروع فى الإعداد لعملية زرع الكلى..

ومضى الشهر، وذهبت لتحديد موعد إجراء الجراحة عندما فاجأونى بحتمية أن يأتى قريب للمتبرِّع من الدرجة الأولى للإقرار بالتبرُّع!! ولما كان هذا مخالفاً للقانون العام الذى يؤكّد أن كل شخص يتجاوز الواحد والعشرين من عمره يعدّ مسئولاً مسئولية كاملة عن أفعاله ما لم يكن يعانى من قصور عقلي أو ضعف فى الإدراك، فقد اندهشت بشدة للشرط، الذى وضع أمامي عقبة جديدة غير متوقّعة خاصة وأن المتبرِّع الذى توافقت أنسجته مع أنسجتي على نحو أدهش الأطباء أنفسهم كان يصرّ بشدة على ألا يخبر عائلته بالأمر..

وهكذا وقعت بين شقي الرحى، فلا المتبرِّع يريد إحضار قريب من الدرجة الأولى ولا المستشفى الذى اعتاد عدم الالتزام بالقوانين يوافق على استثنائى من ذلك الشرط، على الرغم من

سنوات العمل الطويلة. ولأن الأمر مخالف للمنطق والقانون، والدستور أيضاً حاولت أن أفهم سر إصرار مدير المستشفى على هذا الشرط وكان الجواب كارثة..

* * *

ذات يوم وبعد إجراء زراعة كلى ناجحة، وإقرار المتبرِّع بموافقته قام والده بإبلاغ النيابة، بأن ابنه تم اختطافه وإجباره على منح كليته لأحد ذوى الشأن..

والمفترض فى حالة كهذه، أن يقدِّم المستشفى إقرار المريض الذى يتجاوز الواحد والعشرين من العمر ليثبت كذب البلاغ وأن ينتهى الأمر عند هذا، ولكن المشكلة أن كل ذوى المناصب يصابون بهلع مرضي من مجرَّد الاتهام، ويبدون وكأنهم أضعف من مواجهة أى موقف يمكن أن يواجهه مواطن عادي، ثم أنهم يتميزون بأنهم يحتلون مقاعد سلطوية تتيح لهم أن يكونوا جزءاً من التجاوزات القانونية التى شاعت وفاحت فى هذا العصر بالتحديد، ولأنهم ضعاف الأعصاب والشكيمة فأوَّل ما يتبادر إلى أذهانهم هو إصدار قرارات تبعدهم عن المسئولية حتى لو خالفت كل القوانين، وعذَّبت كل البشر.. المهم هم، ومقاعدهم، وبقاءهم، واستمرارهم..

وهنا ومع حالة الفزع وجبر السلطة صدر قرار بضرورة حضور قريب من الدرجة الأولى للإقرار بالتبرع، وهذا القرار مضحك للغاية من وجهة نظري فماذا لو جاء قريب الدرجة الأولى وأقر بالتبرع، ثم جاء قريب درجة ثانية بعدها وقدَّم بلاغاً للنيابة أيضاً؟!.. هل سيمتد القرار عندئذ، إلى ضرورة إقرار قريب من الدرجة الثانية؟!..

لو استمرَّت القرارات تصدر بهذا الشكل البيروقراطى

المذعور سينتهى الأمر بضرورة تجريس المتبرِّع، وفضحه فى الحتة كلها بأن يحصل على موافقة عم عبده البقال والواد حكشة صبى الفهوجى، والمضحك أن تبرير هذا جاء بأن المستشفى يحاول إجبار المجتمع على قبول فكرة التبرُّع أى أن ذلك الصرح الطبي يصرّ على لعب دور المصلح الاجتماعى، وينسى دوره فى أهمية المحافظة على حياة وصحة ومصلحة المريض..

أيامها فكَّرت أن أكتب عن هذا الأمر، ولكننى رأيت أن الكتابة عنه أثناء المشكلة سيجعله يتخذ طابعاً شخصياً، حتى لو حاولت العكس، لذا فقد قرَّرت تأجيل الكتابة حتى تنتهى الأزمة ليمكننى مناقشة الأمر موضوعياً وبدون انفعال، وعلى الرغم من محاولات عديدة، واتصالات لا حصر لها وتدخُّل بعض الأصدقاء للوساطة، منهم الدكتور جلال البطوطى، والزميلة جُلاء بدير، أدركت أنه لا أمل فى إجراء الجراحة فى ذلك المستشفى الكبير خاصة وأن التوافق المدهش لم يثير ذرة من الاهتمام لدى المدير الذى طالبني بالبحث عن متبرِّع آخر بكل بساطة..

وهنا قرَّرت الابتعاد عن المستشفى الكبير والبحث عن حل آخر.. وهنا ظهر نوع مختلف من المفاجآت.. نوع جديد.. تماماً.

* * *

فى بلدنا منظومة فساد ضخمة من أهم أسبابها أن نظام الحكم لدينا يسير بأسلوب العمد والمشايخ، ويعتمد اعتماداً كلياً على أهل الثقة الذى يرى النظام فيهم دون سواهم أهل الخبرة والكفاءة ويصرّ على حمايتهم سواء أصابوا أو أخطأوا باعتبارهم (رجالتهم)، وهى سياسة رشيدة بالفعل !! والدليل أن المشير عبد الحكيم عامر اتبعها قديماً، فكانت

www.dvd4arab.com

النتيجة كارثة وهزيمة ساحقة ماحقة. أطلقنا عليها من باب حفظ ماء الوجه اسم النكسة..

ولأن الفساد قد أصبح سمة عامة فالكل يحاول أن يجرك على السقوط فى مستنقعه ويسعى جاهداً لتعذيبك وقهرك لو حاولت الإفلات منه. ومن أهم وسائل إغراق الناس فى مستنقع الفساد تلك النظم والقرارات الإدارية المعقَّدة، التى لا سبيل للإفلات منها سوى بالتحايل أو الالتفاف أو التزوير أو حتى الرشوة. أما المواطن الشريف فهو يلف فيها ويدور حتى يتملكه اليأس، ويصبح مستعداً ومؤهلاً للفساد فى سبيل حل مشكلاته أو تجاوز عقباته..

وخلال تجربتي ومهما كانت المصاعب كنت مصراً على الالتزام بالقواعد الصحيحة والبحث عن حلول منطقية (فى بلد لا يعرف المنطق) أو مخارج قانونية من كل مأزق. وكل هذا وحالتى الصحية تتدهور بشكل مطرد وتورّم القدمين يتضاعف حتى أصبح السير مجرَّد السير مشقة لا يمكننى تحملها، مما استدعى استشارة طبيب باطنى متخصِّص فى أمراض الكلى والحصول على رأيه فى الفحوص التى تم إجراؤها للمتبرِّع ودرجة توافق أنسجته مع أنسجتى. ونصحنى الدكتور حازم أبو الفتوح باللجوء إلى الدكتور مصطفى أيمن. ولم أكن قد تعاملت معه من قبل فحملت كل الأوراق والفحوص وذهبت إليه، فى نفس الوقت الذى قام فيه الزميل خيري رمضان بمحاولة مشكورة جعلت مستشفى سعد بالمملكة العربية السعودية يعرض إجراء الجراحة لديه وعلى نفقته شاملة تذاكر الطيران والإقامة لي وللمتبرِّع ولمرافق أيضاً !! ولقد أدهش هذا العرض الصديق إبراهيم عيسى وأحزنه فى الوقت ذاته وأخبرنى أنه كان

يتمنى لو أن بلدي هو الذى قدَّم مثل هذا العرض وليس مستشفى سعودي مشكوراً..

المهم أننى قد ذهبت إلى الدكتور مصطفى أيمن فى مرحلة تصوَّرت خلالها أنه لا أمل فى إجراء الجراحة فى مصر، ولكن مع أول زيارة له تبدَّلت الصورة.. تماماً..

* * *

في شبابنا وعند التحاقنا بكلية الطب، كانت فى أذهاننا صورة مثالية للطبيب وكانت لدى كل منا أحلامه وطموحاته وبالنسبة لي كان الطبيب أشبه بفدائي يمنح نفسه لهدف سام نبيل ألا وهو نزع الألم والعذاب من المرضى، ومنحهم الرحمة والأمل والتعاطف ويتفانى لإنقاذ الأرواح وإسعافها ويترك الرزق للخالق عزَّ وجلَّ. وبصراحة منذ بدأت تجربتى هذه مع المرض لم ألتق بطبيب تناغم تماماً مع تلك الصورة مثل الدكتور مصطفى أيمن؛ فهو طبيب مخلص، متعاطف، حسَّاس، شديد التهذيب والاحترام، وتشعر من اللحظة الأولى أنه قد احتواك أو أنك صديق قديم له..

صورة رائعة للطبيب كما ينبغى أن يكون وكما يتمنى أى مريض أن يجد. ولأنه شديد الاهتمام بمرضاه كان من الطبيعى أن تسير العجلة فى سرعة منذ أوَّل زيارة له؛ ففيها اقتراح إجراء الجراحة فى مستشفى مصر الدولي وقرن اقتراحه هذا بخطاب إلى المستشفى لاستخراج تصريح نقابة الأطباء، وهناك فى المستشفى استجاب الدكتور محمود عبد العزيز على الفور وحصلنا على خطاب المستشفى، ولأن الوقت قد حان كما أراد له اللهُ سبحانه وتعالى قدَّمنا الخطاب مع الفحوص والتحاليل والمتبرِّع نفسه إلى نقابة الأطباء وسألنا عن مشكلة

www.dvd4arab.com

إقرار أقارب الدرجة الأولى فأخبرونا أنه ليس من المطلوب تسجيل الإقرارات فى الشهر العقاري وإنما هى إقرارات خطية مع صور البطاقات فحسب. مما جعلنا نستوفى الأوراق والإجراءات كلها خلال يومين ولأننى طبيب ومع تفهُّم الصديقين الدكتور عصام العريان والدكتور عبد الفتاح رزق صدر التصريح فى مدة قياسية..

وعدت إلى الدكتور مصطفى أيمن الذى سألنى متى يمكننى إجراء الجراحة التى سيجريها واحد من عمالقة زراعة الكلى فى مصر، وهو الدكتور إبراهيم أبو الفتوح بمساعدة الدكتور حازم أبو الفتوح ولما كنت قد عانيت الأمرّين خلال الأشهر السابقة فقد طلبت منه إجراء الجراحة فوراً فما كان منه إلا أن أرسلنى إلى المستشفى بالفعل حيث استقبلنا الدكتور محمود عبد العزيز بدماثته البسيطة وتمت الإجراءات بسرعة لى وللمتبرِّع على أن يتم إجراء الجراحة صباح اليوم التالى. وطوال الليل لم أكن أصدِّق أن المشكلة قد انتهت أخيراً. وأننى سأجرى العملية بالفعل بعد أن استعديت لها ثلاث مرات وتم إرجاؤها لأسباب إدارية تعنتية!!..

وفى الصباح التالي تم نقلى مع المتبرِّع إلى حجرة العمليات وحضر الأطباء وتم تخديرنا، وبدأوا فى إجراء الجراحة التى كادت تنتهى بكارثة..

* * *

عندما نتحدَّث عن الأخطاء الطبية اعتدنا أن يثور الأطباء ويغضبون، على الرغم من أن غضبتهم نفسها تعنى أنهم بشر والبشر ليسوا معصومين من الخطأ مهما بلغت مكانتهم ومهما بلغ علمهم، وعندما نشرت فى السابق

سلسلة مقالات عن الفساد الطبى وأخطاء الأطباء وجدت ثورة عارمة من الجميع وعلى رأسهم رفاقي القدامى وزملاء دفعتي فى كلية الطب والذين هدَّد بعضهم بمقاطعتي لو استمريت فى الحملة. مما أشعرنى بأنهم يجهلون حتماً أسس العمل الصحفى. فكل سطر أكتبه أو كتبته فى حياتى كلها سيجد من ينتقده ويغضب منه ومن يؤيِّده ويتفاعل معه. ولو أن صحفى واحد. فى العالم كله تساءل عما إذا كان ما يكتبه سيغضب الكل أم لا لتوقفت مهنة الصحافة وانقرضت. وظهرت بدلاً منها مهنة المطيباتى..

ولكى يهدأ الزملاء دعونى أخبرهم أننى الطبيب الذى أخطأ هذه المرة: فعندما أجريت القسطرة القلبية ولضمان ثبات الدعامات كنت أتناول جرعة منتظمة من عقار قوى مانع للتجلُّط. وعندما ذهبت لزيارة الدكتور مصطفى أيمن للمرة الأولى أخبرنى بضرورة إيقاف العقار قبل عشرة أيام من إجراء الجراحة. ولكن المشاكل الإدارية أنهكتنى وتأجَّلت الجراحة أكثر من مرة لأسباب بيروقراطية بحتة. حتى أننى شعرت أن زرع الأعضاء يعتبر فى العالم كله مشكلة طبية بحتة أما فى عالمنا العربى فهو مشكلة قانونية، وشرعية، واجتماعية فقط..

المهم أنه عندما حصلت على موافقة النقابة وتحدَّد موعد العملية وكنت متلهفاً لإجرائها ومنشغلاً بهذا، حتى أننى نسيت أن أوقف العقار وعندما تذكَّرت هذا أوقفته قبل الجراحة بيومين فحسب ولم أدرك العواقب الوخيمة لهذا. وفى الثامنة صباحاً وبعد ليلة من الإعداد والتجهيز فى المستشفى تم نقلى مع المتبرِّع إلى غرفة العمليات، وحضر العملاق الأستاذ الدكتور إبراهيم أبو الفتوح والدكتور حازم أبو الفتوح، وسرى

www.dvd4arab.com

البنج فى عروقى ورحت فى سبات عميق..

وكما علمت فيما بعد، فما أن بدأ الدكتور إبراهيم فى إجراء الجراحة، حتى فوجئ بنزيف حاد للغاية بسبب العقار المضاد للتجلّط ولما كانت كلية المتبرّع قد انتزعت بالفعل كان من المحتمّ الاستمرار فى إجراء الجراحة والاعتماد على نقل كميات من الدم لتعويض ما أفقده وبقياس نسبة الهيموجلوبين لحظتها، تبيَّن أنها تقلّ عن نصف النسبة المقبولة طبياً.. وكان هذا يعنى كارثة..

* * *

على الرغم من المتاعب الجمّة والعقبات التى لا حصر لها التى واجهتها لإجراء الجراحة، إلا أنه ما من شك فى أننى كنت محظوظاً للغاية خلال الجراحة نفسها فمع النزيف الحاد وانخفاض نسبة الهيموجلوبين كان من الطبيعى أن تكون هذه لحظاتى الأخيرة لولا توفيق الله سبحانه وتعالى، وبراعة العملاقان إبراهيم أبو الفتوح وحازم أبو الفتوح، وكل الطاقم الجراحى المصاحب فالأستاذ ابراهيم كان يعمل بكل مهارة وسرعة فى وسط غارق فى الدم والذى يواصل الانهيار فى غزارة حتى أن المستشفى كان يحتفظ بثلاثة لترات ونصف من الدم استعداداً للعملية وما بعدها ولكنهم اضطروا لنقل الكمية كاملة إلى عروقى فى محاولة لإنقاذ حياتى..

وكما يشبه المعجزة، انتهت العملية بنجاح بعد أكثر من أربع ساعات متصلة، ولم أعلم بما حدث فى حجرة العمليات، إلا بعد أن استعدت وعيى فى المساء وأخبرنى الدكتور مصطفى بالأمر وما أدهشنى وأفزعنى حقاً، أنه بعد ثلاث لترات ونصف من الدم كانت نسبة الهيموجلوبين فى دمى نصف النسبة

المطلوبة فحسب ما حتّم نقل كمية أخرى من الدم الطازج غير المختزن وبسرعة منحتنى زوجتى بعض دمها وكذلك فعل ابنى ثم جاء زوج شقيقتى المهندس خالد فكرى وأضاف إليهما كمية مماثلة وارتفعت نسبة الهيموجلوبين ولكنها لم تبلغ المعدّل المطلوب وهنا طلبت من الصديقين محمد فتحى ومحمد سامي إعلان الأمر للقرّاء.. وفور أن فعلا شاهدت أعظم مظاهرة حب فى حياتى كلها، فقد توافد القراء بالعشرات على المستشفى وكلهم يصرّون على التبرّع بدمهم حتى ضج بنك الدم بالشكوى وأخبرنا أنه عاجز عن العمل بسبب كثرة المتبرعين..

وتجاوزت الأزمة، وقرّرت أن أنشر تفاصيلها كلها عندما أعود إلى منزلى، ولكن حتى الآن ظلت مشكلة الفشل الكلوى وزرع الأعضاء بلا حل: فالإحصائيات تقول إنه لدينا ثلاثة ملايين مريض فشل كلوى سنوياً وبحسبة بسيطة سندرك أننا سنصبح جميعنا شعب مريض خلال عشرين عاماً فحسب، ما لم يبدأ المسئولون دراسة جادة وصحيحة ولا تعتمد على مبدأ (كله تمام يافندم)؛ لمعرفة الأسباب الحقيقية للإصابة بالفشل الكلوى والمعوقات الفعلية أمام قانون نقل الأعضاء الذى لن يفوق تغيير الدستور كله فى أسبوعين؛ لأن قائمة الانتظار ضخمة وما دامت الدولة عاجزة عن منع المرض فلا ينبغى أن تمنع وسائل الشفاء منه أيضاً !! ولا ينبغى أن تعكس فشلها على المرضى والمحتاجين وما دام مجلس الشعب بجلالة قدره يقرّ تغيرات دستورية فى أسبوعين، فلا أقل من أن يسترجع ذاكرته ويدرك أنه مجلس الشعب وليس مجلس الحاكم، وإلا.. فعلى مصر السلام.

Looloo
www.dvd4arab.com

المأزق

Looloo
www.dvd4arab.com

نظام الحكم الحالى جاء إلى السلطة فى ظروف شديدة الصعوبة: فقد تم اغتيال رئيس الدولة وسط جيش مصر وفى عيد النصر، وراحت الجماعات الإسلامية بعدها تشن هجمات عنيفة محاولة استغلال الموقف لقلب الأوضاع كلها والقفز إلى مقاعد السلطة. وكان على القائمين على أمور الدولة آنذاك أن يقاوموا بمنتهى العنف وأن يقاتلوا فى سبيل حياتهم ولإعادة الاستقرار إلى المحروسة لذا صدرت قوانين الطوارئ (التى عشنا فيها ربع قرن أو يزيد) وتدخّلت كل السلطات الأمنية لتتم السيطرة على الموقف ولسد فراغ السلطة، ثم نقلها إلى نظام الحكم الحالى لتستقر الأمور وتبدأ مسيرة تنمية بدت مبشّرة بالأمل فى تلك الفترة من الزمن..

وعندما تصوَّر الكل أن الأمور قد استقرَّت بالفعل بدأت فجأة موجة الهجوم على السائحين واعتبارهم كفاراً واعتبار أن قتلهم (بغير حق) هو الجهاد فى سبيل اللّه. ومع المفاهيم الدينية الخاطئة التى يتصورا أنها تحث المؤمنين على قتل من آمنوا على أنفسهم فى أرضهم ومن دخلوها بإذن اللّه آمنين. كان من الطبيعى أن تشتعل الأمور مرة أخرى وأن تبدأ موجة شديدة العنف. أسفرت عن اغتيال رئيس مجلس الشعب ومحاولة اغتيال وزير الإعلام ووزير الداخلية. وعندئذ بدأت موجة من القتل المتبادل بين النظام والجماعات الإسلامية..

وكان من الطبيعى أن تستمر قوانين الطوارئ وأن تمتد مرة بعد مرة فى ظل تلك الحرب الشرسة العنيفة التى لم يفلح العنف ولم تفلح نظم الأمن القمعية الشرسة فى إيقافها. فلجأ النظام إلى التفاوض مع الجماعات الإسلامية وقياداتها واتفق الطرفان على نظرية منع القتل من الجانبين، ومرة أخرى

www.dvd4arab.com

هدأت الأمور، وبدأ النظام فيما أسماه إقامة البنية التحتية وبدأت مشاريع الصرف الصحى، والكهرباء، والمياه، والطرق، والكبارى، والمواصلات، والاتصالات، ولاحت فى الأفق بوادر تطوّر يمكن أن تقود مصر إلى قطار الحضارة فتصبح نمراً أفريقياً ينافس النمور الأسيوية الشهيرة..

ولكن النظام كان يخفى أمراً آخر تماماً.. كان يخفى تزاوجه مع رجال المال والأعمال ورغبته المسعورة فى أن يثرى الأثرياء ويزداد الفقراء فقراً؛ ليضمن لنفسه البقاء وليحمى سلطته بالثروة !!!

البداية كانت الرغبة فى استغلال رجال الأعمال فى تطوير مصر ودفعها إلى نقلة حضارية كبيرة، ولكن رجال الأعمال دوماً أخبث وأذكى من السلطة والمال دائماً له سحر لمن يبتغى الدنيا وهو وسيلة الشيطان الأولى لدس أنف العظماء فى تراب الفساد.

وهكذا وفى تسلّل بطئ خبيث بدأ رجال الأعمال فى استغلال السلطة التى حاولت استغلالهم وبدلاً من أن يعملوا على تطوير مصر، تركّز عملهم على مضاعفة ثرواتهم وتطعيمها بسلطة قوية واسعة خاصة وأن الطريق إلى هذا سهل وميسور ويتمثّل فى الانضمام إلى الحزب الحاكم وإعلان الولاء للسلطة وعدد من التبرعات المالية التى تدخل ضمن بند الدعاية والتطوير..

وهكذا غاب الهدف الرئيسى عن النظام، وانشغل مع رجال المال والأعمال حتى نسى أنه يحكم دولة فقيرة أكثر من ثلثى سكانها يعانون شظف العيش ويجاهدون للحصول على أدنى لقمة تشبع جوعهم وجوع أولادهم، فى نظام يتشدّق بديمقراطية مزعومة ليل نهار ويبيع أرض مصر لكل من هبّ

ودبَّ وكأنما لم يقرأ سطراً واحداً من كتب التاريخ، ولم يعرف كيف ضاعت فلسطين ودون حساب أمر الفقراء والبسطاء والطبقة المنقرضة التى كان يقال لها قديماً البرجوازية، حيث أباح أرض وعقارات مصر للأجانب والذين دخلوا المزاد بأموال النفط أو بأغراض خبيثة غير معلنة، فرفعوا أسعار كل شئ على نحو صار الموت فيه أرخص من العيش فى برّ مصر..

ولأن السلطة المطلقة مفسدة، فقد بدأ الفساد يسرى فى ربوع الوطن وساعده الفقر المدقع على النمو وساهمت ديكتاتورية السلطة وفسادها على ريه بالنفاق والمراهنة وعبارة (كله تمام يافندم)، ورأى الفاسدون الكبار أن أفضل وسيلة لضمان استقرار واستمرار فسادهم هى أن ينقلوا الفساد إلى كل المستويات الأدنى، وفى غياب نظام يبالى بالداخل ولا يشغل كل فكره بالخارج نجح الفاسدون الكبار فى مخططهم ونقلوا الفساد إلى الفئات الأدنى، والأدنى، والأدنى..

وهكذا، وعلى الرغم من كل ما يردِّده وينفيه النظام، غرقت مصر كلها فى فساد بلا حدود شمل كل شئ، وأى شئ..

* * *

الفساد أصبح السمة العامة فى مصر، والشئ الذى يتيقن منه كل طفل ويعلمه كل شخص وتنفيه الحكومة فى كل لحظة، وكأنما هى العمياء الوحيدة وسط شعب من المبصرين، أو أنها تدركه ولكنها عاجزة أو حتى غير راغبة فى مقاومته، أو التصدِّى له لغرض فى نفس يعقوب، وكأمر طبيعى وتداعٍ منطقى التهم الفساد كل موارد الدولة وعصّر الناس فى معيشتهم أكثر وأكثر، فانقسموا إلى عدة فرق منهم فريق كبير يسعى سعياً إلى الفساد ويحاول غايته ونيريره ليطفئ

www.dvd4arab.com

عذاب ضميره الذى سرعان ما يقتله استمرار الفساد فلا يحاول تفسيره وإنما يكتفى بالعيش فى حرامه معللاً الأمر بأنه الوسيلة الوحيدة للعيش، وفريق آخر لم يجد السبيل إلى الفساد فصار غاضباً، ناقماً، وبينهما فريق أفرغ غضبه فى مفاهيم دينية تزداد تطرُّفاً وتعقيداً وتعصباً كل يوم وجد متعتها مع المتشددين من شيوخ الفضائيات لعل التشدُّد يكون الموجة المضادة التى تنشأ عن موجة الفساد العارم..

والأغرب أنه نشأت فئة عجيبة تمارس الفساد فى عملها اليومى فتتلقَّى الرشاوى وتخرِّب الذمم وتزوِّر المستندات ثم تتحوَّل إلى شخصيات شديدة التطرُّف بعد هذا وكأنما تتصوَّر أن التشدُّد فى الدين فى المساء سيغفر لها ما اقترفته أيديها فى الصباح!.. وكلما التقيت بأحد أصحاب تلك الفئة الأخيرة وهو يطلب رشوة أو إكرامية فى وقاحة، وسألته عما يفعله لأجابك متبجحاً أن هذا حقه، وأنه يتعامل مع من يملكون المال فلماذا لا يكون له جزء منه وهو يتصوَّر أنه بهذا قد وضع الحجة أمام رب العالمين الذى يعلم ما فى القلوب، وهو شديد الحساب..

اختلطت المفاهيم، وارتبكت العقول، وامتزجت التقاليد القديمة والشرقية بالأحكام الدينية وارتدت الآراء الشخصية ثوب الدين كوسيلة لإخراس كل الألسنة، وكبت أية معارضة، وراح التياران المتضادان يتعاظمان فى المجتمع على التوازى، تيار الفساد، وتيار التطرُّف، الذى ساهم الغرب فى تقويته ليشمل العالم العربى كله من أقصاه إلى أقصاه، حتى ننشغل فى صراعات داخلية طائفية ونبتعد عن الغرب الذى يتصوَّر أنها وسيلة مثلى لينعم بالأمان والاستقرار الداخلى..

* * *

لكن أكثر الأشياء التى تثبت طيبة وسذاجة شعب مصر حتى المثقفين منهم، أنهم ما زالوا ينادون طوال الوقت بضرورة وجود ديمقراطية حقيقية وانتخابات نزيهة، وعدم تدخُّل رجال وجهات الأمن فيها..

فالواقع أن هذا، فى ظل الظروف الحالية أمر مستحيل تماماً.. فالتجارب من حولنا تثير ذعر النظام الحاكم وتنبئه أن نتيجة الديمقراطية الوحيدة هى سيطرة التيار الإسلامى على السلطة، والذى يمكن أن يؤدى ليس إلى عزلهم منها فحسب ولكن ربما إلى إعدامهم أيضاً.. ففى الجزائر أدَّت الانتخابات الحرة إلى فوز التيار الإسلامى وما أعقبه من تدخُّل الجيش والمذابح التى استمرَّت سنوات وسنوات، وفى فلسطين أتت الانتخابات بحماس إلى السلطة وما استتبع هذا من صراعات وخلافات وانقسام فلسطين فى النهاية وانشغال شعبها بحرب داخلية بدلاً من أن يهتم بقضيته، وبعودة لاجئيه..

فهل يمكن أن نخاطر الحكومة بهذا؟!.. هل يمكن أن نرعى انتخابات نزيهة فعلياً وهى تعلم أن التيار الإسلامى متغلغل فى أوساط المجتمع وأن جماعة الإخوان المسلمين تحظى بتأييد هائل فى نفوس كل من يبغض نظام الحكم ويبغض فساده ومحسوبيته وقصره الخير على ذوى الحظوة وأهل الثقة؟!.. الجواب هو مستحيل طبعاً !.. لن يخاطر النظام بوجوده ولن يهدِّد كيانه ولن يسمح برفع حالة الطوارئ أو بخوض انتخابات نزيهة قد يكون بقاؤه أو تكون حياته ثمناً لها..

وربما كان النظام معذوراً فيما ذهب إليه لأنه أوَّل من يدرك على الرغم من كل ما تطبطن به صحفه ووسائل إعلامه أنه مكروه تماماً فى الشارع وفى كل الأوساط الفقيرة

Looloo
www.dvd4arab.com

التى لا يعرف وسيلة للتعامل معها سوى فرق الأمن المركزى والعصى الغليظة والتجاهل والاعتقالات الأمنية والقهر والطغيان. ومترفي مصر تزاوجوا مع السلطة ففسقوا فيها وعاثوا فى أرضها فساداً. والنظام برعاهم وحميهم ويلعب معهم لعبة ليست جديدة على تاريخ مصر. ألا وهى لعبة حماية الرجال. حتى لو أخطأوا.. والتاريخ يخبرنا فى وضوح. ما الذى انتهت إليه هذه السياسة..

* * *

الدول البوليسية هى دول تعتمد فى بقائها بالدرجة الأولى. على نظم أمنها وليس على ارتباطها بالشعب وتفاعلها مع الجماهير وفى تلك الدول يتعاظم دور نظم الأمن. التى تكبر. وتتعملق. وتدس أنفها فى كل شئ وأى شئ. فلا يحتل أى شخص مهما عظم شأنه أى منصب فى الدولة إلا بموافقتها ولا يجرى أمر إلا عبرها ولا يحدث تطوّر إلا من خلالها. ومع مرور الوقت تصبح النظم الأمنية دولة داخل دولة ويصبح من المستحيل إيقافها عند حدها أو الحد من سلطاتها حتى لو انتهت الظروف التى سمحت لها بالسيطرة على الجبهة الداخلية. ولن يدهشنا أن يأتى يوم تتحدَّى فيه جهات الأمن نظام الحكم نفسه بما تمتلك من قوة فيحدث الصراع الذى سينهى عصراً ويبدأ عصر جديد..

ونظام الحكم لا يتخيَّل حدوث هذا بالطبع تماماً مثل الذى يضع كلباً شرساً فى حديقة منزله ويدرِّبه على أن يعض فى شراسة كل من يقترب منه ثم يشعر هو بالأمان حتى يصاب الكلب بالسعار فجأة أو يفقد حاسة الشم لسبب ما. فيهبش

فى صاحبه ويمارس معه ما تدرَّب عليه!! ولكن نظام الحكم معذور فيما يذهب إليه من عملقة نظم الأمن: فهو يدرك جيداً أن الشعب الذى يبغضه بغض التحرم لو وجد فرصة للانقضاض عليه فلن يتوانى عنها وهو غير مستعد للتنازل عن مقعد السلطة مهما كان الثمن حتى لو اضطره ذلك إلى التضحية بالشعب كله..

وهذا ما فعله الرئيس العراقى عندما واجه أمريكا فى مواجهة عسكرية صريحة فهو لم يستسلم ولم يهادن. وضحى بشعبه كله وبدولته كلها وأوقعها فى براثن احتلال رهيب. لا أحد سوى الله سبحانه وتعالى يعلم متى ينتهى ولا متى يعود العراق إلى وحدته وتماسكه. وكل هذا حتى يتشبَّث بسلطته ومقعده حتى آخر قطرة دم فى جسد آخر مواطن عراقى.. ولو تكرَّر الأمر عندنا سيفعل بنا نظام الحكم المثل وسيخرج علينا – كالمعتاد – بعبارات وطنية رنَّانة يبرِّر بها تشبثه بالسلطة حتى يُرق دماءنا جميعاً.. المهم أن يبقى هو وأن يستمر وأن تبقى نظم أمنه وتستمر وكل هذا.. لدواعى الأمن..كما يدعي ... فقط دواعي الأمن !

* * *

عندما قامت ثورة يوليو ١٩٥٢م منذ ما يزيد عن نصف قرن كان أحد أهدافها القضاء على الرشوة والفساد والمحسوبية وكانت الأهداف الأخرى تشمل القضاء على الإقطاع وسيطرة رأس المال وعلى الرغم من أن نظم الحكم المختلفة ما زالت تتعامل مع الثورة بقداسة عجيبة حتى تعتبر كل من ينتقدها خارجاً عن الإجماع الوطنى. إلا أن نظام الحكم الحالى يهدر

www.dvd4arab.com

أهداف الثورة كل يوم دون أن يطرف له جفن ودون أن يتوقَّف عن التظاهر بتقديسها وإجلالها..

ففى نظام الحكم الحالى انتشر الفساد والرشوة والمحسوبية وعادت سيطرة رأس المال بأبشع مما كانت. فالرأسماليون القدامى كانوا يسكبون بعض ما لديهم على الشعب عبر بناء المستشفيات والمدارس ودور العبادة وإقامة الولائم للفقراء وتقديم العون للمحتاجين. أما رأسماليون هذه الأيام فلا يكتفون بمص دماء الشعب فحسب عبر احتكارات وحشية وإنما يسعون فى شراسة إلى انتزاع اللقمة من أفواه الجائعين فى وقاحة سلطوية ما داموا يستندون إلى نظام الحكم الذى يرعاهم ويساندهم ويغطى أخطاءهم ويتعامى عن فسادهم. إما مقابل جزء منه أو مقابل خدمات خاصة مثل تعيين الأبناء فى وظائف عليا أو مشاركتهم فى مشاريع محدودة. وكل هذا حتى تستمر المركب وتواصل طريقها فى بحر الفساد فى أمان..

تلك السياسة. وأقل منها فساداً. كانت السبب فى قيام ثورة يوليو. وتلك السياسة أيضاً كانت السبب المباشر فى نكسة يونيو. وهى نفسها التى ستصبح السبب الرئيسى فيما يخبئه لنا المستقبل!!.. فمشكلة هذه السياسة أنها تفسد كل شئ من القمة إلى القاع. حتى تصبح الدولة كلها أشبه بحجرة أنيقة أكل السوس كل ما فى داخلها وإن بقى مظهرها الخارجى على حاله..

حجرة تحتاج إلى ضربة محدودة حتى ينهار كيانها كله وينكشف أمرها ويظهر ضعفها على حقيقته..

والمشكلة أن هذا الضعف أصبح واضحاً للأعين.. أعين

الأصدقاء قبل الأعداء. وأصبح الكل فى انتظار الانهيار وخراب مالطه. الذى لابد وأن تؤدى إليه هذه السياسة. والسؤال هو ماذا ننتظر.. ثورة. أم نكسة؟!..

* * *

فى بلدنا ثلاث مؤسسات. هى المسئولة عن كل ما وصلنا إليه من تدهور فكرى وانعدام ثقافى وسلفية هستيرية لم تعد ترى الخير فى عالم يتسابق للحاق بالمستقبل سوى فى التشبُّث بالماضى والانغماس فيه وإغماض العيون عن الحاضر وتجاهل المستقبل (وهذا بافتراض أن دولتنا دولة مؤسسات!)..

المؤسسة الأولى. هى المؤسسة الدينية التى كبرت وتضخَّمت وتعملقت فى العقود الثلاثة الأخيرة لتدس أنفها فى كل شئ فى السياسة. والعلم. والقضاء. والاقتصاد. وتعود بنا ألف عام إلى الوراء بحجة جاهزة ومعلَّبة وقادرة على خداع عامة الشعب من البسطاء والمكافحين الذين سعت الدولة منذ عدة عقود لعزلهم عن ثقافة العصر وتطوُّراته حتى تأمن أمرهم. وتضمن استكانتهم. وخضوعهم لأوامرها وتصرفاتها المجحفة وقراراتها الديكتاتورية المغلَّفة بعبارات ديمقراطية رنَّانة..

والمؤسف ليس تعملق المؤسسة الدينية أكثر مما ينبغى ولكن أن الدولة تبارك هذا التضخُّم وترعاه جاهدة؛ لأنها تتصوَّر أنه القوة المضادة التى تواجه بها التيار الدينى المتطرِّف. تماماً مثلما فعل الرئيس السادات عندما أطلق التيار الدينى من عقاله كوسيلة للقضاء على الخطر الشيوعى. فولَّد وحشاً يفوق ما كان يخشاه ألف مرة..

نفس الخطأ تقع فيه الدولة الآن غير مدركة أن المؤسسة الدينية فور اكتسابها سمة رسمية وفور أن تخطى

Looloo
www.dvd4arab.com

بتأييد الدولة ومباركتها فهى تفقد كل مصداقية لها فى الشارع حتى أن الناس تغضب وتعارض آراء مفتى الديار الرسمى، وتتحداه حتى فى موعد الأعياد وصلاتها. ولم تعد تميل إلا لشيوخ التطرُّف والتشدُّد والتعصُّب الذين يغمرون الفضائيات ويتميزوا بالصراخ والوعيد والغضب وكأن أحداً فى الدنيا لن يؤمن ولن يتبع ملة إبراهيم ولن يعبد الخالق عزَّ وجلَّ إلا بالجزمة القديمة..

والناس لأنها تحيا فى عصر فساد كبير، ومعظمهم يشاركون فيه إما بقبول الرشاوى والإكراميات، وإما بالسكوت عنها. فهم يحملون شعوراً دائماً بالذنب والخطأ ويجدون فى التشدُّد والتطرُّف وسيلة مثلى للتكفير عن ذنوبهم أو لإقناع أنفسهم بأنهم فى جانب الخير والصلاح !

* * *

بصراحة مشكلة المؤسسة الدينية فى مصر، أنها تدفعنا دفعاً إلى الخلف بتفسيرات معقَّدة وآراء جامدة وتعنتات نظرية فى الوقت الذى يتقدَّم فيه العالم كله من حولنا بسرعة الصاروخ. ونشعر نحن فى كل يوم بالصدمة أمامه فينعكس هذا على غضب عنيف يجعلنا نلعن العالم المتطوِّر، ونتهمه بالكفر والإلحاد طوال الوقت وكأن هذه هى الوسيلة الوحيدة لنثبت لأنفسنا أننا أفضل منه حتى لو سقطنا فى قاع التخلُّف والجهل.. والمأساة الأكبر أن المؤسسة الدينية تتبع دولة طاغية تعتمد فى بقائها على نظم أمن قمعية فاشستية ديكتاتورية تعملقت بدورها وصارت أحد أسس الحكم والركيزة الأولى له..

وعلى الرغم من غضب وتعنُّت المؤسسة الدينية، لم نسمع من أحد أفرادها الموظفون فى الدولة فتوى واحدة تجاه

تجاوزات الدولة وفسادها واخلال مسئوليها وديكتاتورية قياداتها. لذا فالأمن يقف بكل قوته لمساندة مؤسسته الدينية الرسمية التى تستخدم سلاح التكفير لمقاومة كل رأى أو فكر يخالفها على نحو ديكتاتورى رهيب ما أن يلتقطه الأمن ومسئولوه حتى يتحركوا فى سرعة وحماس لقهر الرأى الآخر واعتقال الفكر المخالف وكأن هذا أحد مبادئ الدين السمح الذى جعل من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر..

ولعلنا واحدة من دول الطغيان والديكتاتورية القليلة التى ما زالت تواجه اختلاف الفكر مهما كان اتجاهه بنظم أمنية قمعية وحبس واعتقالات ومحاكمات أمام محاكم عسكرية، أشك فى أن دولة واحدة ولو شبه ديمقراطية يمكن أن تستخدمها لمحاكمة مدنيين.. ولكن الأمن لدينا لا يؤمن بالديمقراطية أو حرية الرأى والفكر، بل وليس من بين رجاله من يملك أي نوع من أنواع الثقافة الكامنة أو اهتم مخلوق واحد من هؤلاء بتنمية ثقافته حتى !!!

فالأمن في مصر يتصوَّر أنه يقوم بواجبه على أكمل وجه باعتبار أنه يحمى النظام والحكومة وكلهم نسوا أن مهمتهم الرئيسية هى أن يحموا الشعب وليس النظام، ولكنهم لم يعودوا يذكرون هذا، كما لم يعد أحدهم يذكر أنه مجرَّد بشر ذائق الموت طال الأمر أم قصر، وأن الله سبحانه وتعالى شديد العقاب.

* * *

المشكلة أن المؤسسة الثانية وهى المؤسسة الأمنية قامت بإخضاع رجال الأمن كلهم فى مصر لحالة غسيل مخ قوية،

www.dvd4arab.com

جعلتهم يؤمنون فى النهاية بأن مهمتهم الأولى هى طاعة أوامر الرؤساء وتنفيذ رغباتهم حتى لو كانت فى إبادة البلاد والعباد بل ويتصوَّرون على العكس أنهم يحمون الدولة من خطر المعارضين والمخالفين وأعداء النظام والوطن. تماماً مثل الجندى أحمد سبع الليل فى فيلم البرئ والذى كان يضرب المعتقلين بكل الوحشية مطمئناً أنه بهذا يحارب أعداء الوطن حتى فوجئ ذات يوم بأنه مجرَّد مجرم كل ما يفعله هو محاربة الوطن ذاته لحساب أعداء الوطن!!..

هذا ما كشفه أحمد سبع الليل فى الدنيا، ولا أحد يمكنه أن يخبرنا ما الذى سيكتشفه فى الآخرة عندما يصعد ككل البشر الذين طالما سحلهم وضربهم وقهرهم وأساء إليه، إلى خالق الكون العظيم لينبئه بما فعل واقترفت يداه.. ولكن من الواضح أن الترقيات والمكافئات والبدلات تمحو من الأذهان فكرة الموت والآخرة والحساب والعقاب. فيصبح رجل الأمن عبداً للمأمور!! . وينسى أنه عبد للّه عزَّ وجلَّ؛ فيعاون الدولة على طغيانها وجبروتها وينعم بخيرها ثم يحترق فى نار الجحيم إلى الأبد فى آخرة ما لها من نهاية..

والكلمات السابقة ربما تحظى بسخرية رجال الأمن الذين اعتادوا السخرية من كل إشارة إلى الدين والثواب والعقاب. باعتبار أن ما يفعلونه هو قمة الخير والإيمان والصلاح على الرغم من ثقتي التامة فى أن أحداً منهم لم يحاول أن يحصل على فتوى واحدة فيما إذا كان ما يفعله حراماً أم حلالاً.. وفكرة الحرام والحلال هذه غير واردة على الإطلاق فى نظم الأمن. ولو أنك سألت أى شخص تعامل معها فستجد أنه إذا ما أشار إلى العقاب الإلهى لم تستقبله سوى ابتسامات ساخرة

وعبارات متهكمة وكأنه يتعامل مع وزارة الكفر والإلحاد أو جهاز أمن قريش..

وعلى الرغم من هذا، فسيدهشك أن رجال الأمن يحرصون دوماً على الصلاة والصيام وكثرة قراءة القرآن وترديد الأحاديث. وكل هذا من منطلق شعورهم القوى الذى يملأ عقولهم الباطنة بأنهم قد ارتكبوا ويرتكبوا ذنوباً فظيعة يأملون أن يغفرها اللّه سبحانه وتعالى لهم عندما يُسرفون فى العبادات والصلاة وقراءة القرآن !!

* * *

لكن الحديث الشريف أشار إلى عبارة ، ليتها ما زنت وما تصدَّقت، وهو نفس المعنى الذى نردِّده فى أمثالنا الشعبية يا خلة لا تقرصينى ولا عايز من عسلك. والمعنى باختصار أنه لا قيمة للصلاة والصيام لو أن المرء يرتكب بينهما معاصى الدنيا كلها فمن لم تنهه صلاته عن فحشائه فلا صلاة له..

باختصار أكثر ... كل صلاة رجال الأمن وعباداتهم لن تتصدى لدعوة مظلوم واحد. أقسم اللّه سبحانه وتعالى بعزته وجلاله، أن ينصره ولو بعد حين.. ولكن ما من مخلوق واحد من رجال الأمن سيقرأ هذه الكلمات. باستثناء قسم الإعلام بمباحث أمن الدولة بالطبع وما من فرد واحد سيجرؤ حتى على التفكير فيه. لأنهم كلهم عبيد المأمور وليسوا عبيد اللّه عزَّ وجلَّ..

ثم أن مهمتهم الأساسية، من وجهة نظرهم هى حماية النظام وضمان بناء واستمرار المؤسسة الثالثة.. مؤسسة الرياسة، التى كان يمكن أن نعتبرها المؤسسة الأولى المسئولة عما بلغناه من فساد وتدهور لولا أنها لم تعد فعلياً

Looloo
www.dvd4arab.com

بالقوة التى تستحق معها هذا الوصف؛ إذ أنها تقع فى نفس الأخطاء التى وقعت فيها مرحلة جمال عبد الناصر ما قبل نكسة يونيو.. لقد سمحت لمؤسسات أخرى بأن تكبر وتتعملق متصوَّرة أنها بهذا تحمى وجودها حتى يأتى يوم تفيق فيه من غيبوبتها فتجد أن تلك المؤسسات قد صارت أقوى وأشرس منها وأكثر توغلاً فى المجتمع، بحيث تعجز هى نفسها عن كبحها وتحجيمها وإعادتها إلى عقالها أو السيطرة عليها..

فى عصر عبد الناصر بلغت المؤسسة العسكرية حداً جعله غير قادر على مواجهتها، وخاصة بعد هزيمة ١٩٥٦م، والتى سعى الإعلام لتحويلها إلى نصر وهمى ما زلنا نحتفل بعيده حتى يومنا هذا !! ولكى ينهار النظام ويواجه نكسة عنيفة كان لابد وأن يكتمل تعملق المؤسسات الثلاث ويكتمل صراعها مع الشعب ولابد وأن تتضارب المؤسسة الدينية، والمؤسسة الأمنية، ومؤسسة الرياسة، مع أية محاولة لتنشيط الحياة السياسية أو تطوير المجتمع أو النهوض بالعلم بما يحتم أن نهوى إلى القاع أكثر وأكثر وأكثر فى كل أسبوع ويوم وساعة ولحظة، حتى تأتى لحظة الانهيار.. دون أدنى شك.

* * *

مصر دولة مستقلة ذات سيادة.. هذا ما تعلمناه فى المرحلة الابتدائية وما ظللنا نردده حتى فى أعماقنا حتى تفتحت عيوننا على حقائق الحياة، والسياسية، والمجتمع والناس.. وحتى عقود مضت كنا نؤمن بالعبارة إيماناً مطلقاً، ونغضب من كل من يحاول المساس بها من قريب أو بعيد..

ثم جاء النظام الحالى، وجاء عصر التبعية الواضحة

للولايات المتحدة الأمريكية والخضوع الشديد لتوجيهاتها. وأصبح كل طفل فى مصر يدرك أننا لم نعد دولة ذات سيادة إلا فى خطب الرئيس وكتب الدولة ولقاءات مسئوليها.. أما فى عالم الواقع، فأصغر صغير فى الدولة يدرك أن أمريكا فوق كل شئ؛ وأن احتلال العراق وإلقاء القبض على الرئيس صدام حسين، ومحاكمته، وإعدامه، كان رسالة استوعبها كل حكام ورؤساء وملوك المنطقة فارتجفت أوصالهم وتملكهم الرعب على حياتهم ومقاعدهم وسلطاتهم وأدركوا أنه إما الطاعة التامة للسيد الجديد وإما قطع رقبة وضياع سلطة..

صدام حسين إذن كان القطة التى ذبحها الأمريكيون لكل النظم العربية، حتى ينكتموا، ويخضعوا، ويدركون أنهم مجرَّد دمى، أو قطع شطرنج، على رقعة السياسة، التى تحرِّكها الأصابع الأمريكية وحدها.. وعندما فقد الحكام سيادتهم وسيادة بلادهم الفعلية، لم تعد أمامهم سوى السيادة الداخلية التى عكسوا عليها كل إخفاقاتهم وإحباطاتهم وضآلتهم، فتعاملوا معها ومع الشعوب المسكينة عبر أجهزة أمن قمعية قهرية بشعة لتكميم الأفواه وسجن المعارضين ومقاومة التنظيمات ذات الشعبية الكبيرة أو التواجد الجماهيرى الملحوظ..

وأصبحت اللعبة واضحة للجميع فكلما شعر السادة بالقهر من سيدهم الأمريكي وكلما عاملهم بعجرفته التقليدية، اختنقوا بغضب مكبوت ولم يجدوا أمامهم سوى الشعب المسكين لإفراغ كل هذا.. وعلى الفور يتحرَّك رجال مباحث أمن الحكومة، وقوات الأمن المركزى، وتبدأ موجة الضرب، والقهر، والإهانة، والاعتقال، والمحاكمات العسكرية للمدنيين

Loolop www.dvd4arab.com

وقيادات الجماعات (المحظورة).. وكل هذا يدل على أمر واحد.. أن مصر لم تعد دولة مستقلة أو ذات سيادة.. على الإطلاق.

* * *

من الأمور المعتادة فى مصر فكرة الاتهامات المعلَّبة الجاهزة، لمواجهة أى خلاف فى الفكر أو الرأى، فقديماً كان الاتهام الرئيسى هو الشيوعية والإلحاد، ثم جاء العصر الحالى الذى يعتمد على الكلمات الفخمة الكبيرة بأكثر مما يعتمد على الأفعال الشفافة الصريحة، وتطوَّرت الاتهامات لتشمل كل شخص، وكل شئ، حتى الاختلاف بين اثنين عاديين على قهوة صغيرة.. وأكثر من يوجه الاتهامات هو مؤسسات الدولة الرسمية نفسها، فعندما تواجه المؤسسة الدينية فكراً يخالف فكرها، فهى تستخدم تهمة التكفير فوراً حتى لم يعد للكلمة معنى، والمؤسسة الأمنية هى والمؤسسة الرياسية تستخدمان تهم تعكير الأمن العام، وتهديد الأمن القومى، والأطرف تهمة الإساءة إلى سمعة مصر..

والاتهام الأخير تم ابتذاله على نحو يفوق العقل والمنطق، فأى ناقد يرفض فيلماً سينمائياً يعتبره إساءة لسمعة مصر، وكل رأى حر أو فكر منفتح أو كشف لعيب من عيوب المجتمع هو إساءة لسمعة مصر، وكأن سمعة مصر هذه مهتزة وضعيفة حتى أن أية لمسة كفيلة بالإساءة إليها!!.. والمفترض أن سمعة مصر هذه أكبر وأقوى من أن يمسَّها فيلم سينمائى أو خبر فى صحيفة أو رأي فى مقال، ومن يستخدمون هذا الاتهام هم فى الواقع من يسيئون إلى سمعة مصر..

فى أمريكا مخرج اسمه مايكل مور، أفلامه الأخيرة

تهاجم النظام الأمريكى فى عنف وترفع الغطاء عن عيوبه وأخطائه، وعلى الرغم من هذا، فهو يحصل على جوائز من كل الجهات ولم تتهمه جهة واحدة أنه يسئ إلى سمعة أمريكا

وعندنا فى مصر، أخرج يوسف شاهين ذات مرة فيلماً بعنوان مصر منوَّرة بأهلها، وأظهر فيها أكوام الزبالة والعادات السيئة، وثارت الدنيا وهاجت وماجت، واتهموا يوسف شاهين وفيلمه بالإساءة إلى سمعة مصر، ولكن أحداً لم يرفع أكوام الزبالة ولم يحارب العادات السيئة.. وهذه هى مصر.. وسمعة مصر.

* * *

عندما تزوِّر الحكومة الانتخابات، وعندما تعدِّل الدستور، وعندما تعتقل المعارضين، وعندما تحاكم قيادات الإخوان المسلمين أمام محاكم عسكرية، وعندما تمنع تحويل جماعة محظورة إلى حزب رسمى، فإنها تعتبر أن كل هذا من أجل الحفاظ على أمن واستقرار مصر..

ولكن ما هو أمن مصر؟!.. أهو تكميم الأفواه، واعتقال المعارضين، وقهر الشعب، وضياع الديمقراطية، وغياب الحريات المدنية؟!..أى مصر إذن، تلك التى يحافظون على أمنها؟!.. الأرض والحجارة والرمال والطوب والزلط؟!..

لو أن الأمن هو أمن الأرض، فهم يبيعونها للأجانب ويشتريها المسئولون وأقاربهم برخص التراب ليعيدوا بيعها للشعب فيما بعد بملايين الجنيهات.. ولو أن الأمن هو أمن المنشآت فهى أيضاً أصبحت مباحة للأجانب الذين يشترون مصر بكل منشآتها الآن، وربما يسعون لطردنا منها بعد عقد أو عقدين من الزمان بحجة حماية أملاكهم تماماً مثلما حدث فى

Looloo
www.dvd4arab.com

فلسطين من قبل..

أى أمن إذن الذى يحميه الدولة؟!.. ربما هو أمن المصانع، والشركات الكبيرة، والاحتكارات المخيفة، التى يقوم بها أصحاب وأقارب ورجال النظام وينهبون بها أموال الشعب.. وأموال مصر أيضاً..

الدولة إذن لا تحمى بكل ما ترتكبه من موبقات أي أمن للمواطن ولا أي أمن للدولة نفسها، بل هى تحمى مصالحها وبقاءها واستمرار مسئوليها الفاسدين على مقاعدهم وتحمى استمرار نهب قوت الشعب واستغلاله وقتل الفقراء منه.. أما المواطن العادى، فلم يعد يشعر بالأمن إطلاقاً منذ أن يفتح عينيه فى الصباح وحتى يغلقهما فى المساء هذا لو وجد ما ينام عليه.. المواطن العادى يدرك تماماً حالة غياب الأمن والأمان فى الشوارع والطرقات والتى أدت إلى انتشار غير مسبوق للمجرمين والجريمة وضياع الحقوق ونهب البيوت والأماكن والمنشآت فى وضح النهار وفى عز الظهر أيضا..

أى أمن إذن الذى تحميه الدولة؟!.. سؤال ينبغى أن نطرحه على كل مسئول . ولكننا لن نحصل حتماً على الجواب.. لدواعى الأمن !!!

* * *

ما الفارق بين الحكومة الوطنية وحكومة الاحتلال؟!.. الجواب فى بساطة هو أن الحكومة الوطنية تنبع من الشعب، هو ينتجها ويختارها ويسانده فى قراراتها ويحاسبها على أخطائها ويملك عزلها من السلطة لو لم تتجاوب مع متطلباته واحتياجاته. أما حكومة الاحتلال فهى حكومة يختارها المحتل

ويحرص دوماً على أن يكون أفرادها من أبناء الوطن المحتل ولكنهم يدينون بالولاء له وليس لأوطانهم ويدركون جيداً أن المحتل هو راعيهم وحاميهم وسندهم وأن الشعب لا يملك لهم نفعاً ولا ضراً لذا فهم يتجاهلون رغبات واحتياجات من يحكمونهم تماماً ويتركّز كل اهتمامهم على إرضاء المحتل الذى يتحوّل إلى الهدف الوحيد للحكومة التى تخفى عنه كل ما يمكن أن يثير غضبه أو ضيقه ولا تهتم إلا بإرضائه وإسعاده وضمان رضائه عنها وبقائها على مقاعد السلطة لأطول فترة ممكنة..

السؤال التالى إذن هو: كيف نصنّف النظام الذى يحكمنا وفقاً لهذا التعريف؟! الجواب فى بساطة ووضوح أننا محكومون بحكومة احتلال.. حكومة لا تبالى بنا أو تهتم بمطالبنا واحتياجاتنا ولكنها تولى همها كله لإرضاء الحاكم ولو على حساب المحكوم وإشباع الحاكم حتى ولو تضوّر الشعب كله جوعاً والحاكم نفسه يعتاد هذا الأسلوب حتى يتصوَّر مع الوقت أن الهدف من وجود الحكومة والدولة كلها هو سعادته ومجده وانتصاراته وحدها ويستمرئ السلطة والجاه، فيتحوَّل تدريجياً إلى طاغية مستعد لذبح الشعب كله لو اقتضى الأمر فى سبيل أن يبقى على عرش السلطة..

وفى سبيل البقاء لا يتوانى الحاكم، أو تتوانى الحكومة، عن اعتقال المعارضين وحبس وسجن المنافسين والتنكيل بالمخالفين فى الفكر والرأي وسحل الرافضين لوجودها وبقائها وتزوير الاستفتاءات والانتخابات وقهر كل من تسوّل له نفسه قول كلمة حق لسلطان جائر وحتى تنفّذ هذا تتحجج دوماً بعبارات فخمة وكلمات معسولة وجمل برّاقة قوية فاعتقال المعارضين حفاظ على الأمن الداخلى وسجن المنافسين هو

Looloo
www.dvd4arab.com

سيادة القانون والتنكيل بالمخالفين هو حماية للجبهة الداخلية، وبعد كل هذا نجد حكومة الاحتلال دوماً فى نفسها الصفاقة الكافية لتصف نظام حكمها الديكتاتورى بالديمقراطية الزاهية، وكأن مجرَّد التسمية تكفى لدرء الخطر تماماً مثلما يتصوَّر شخص ساذج أن تسمية الأسد بالأرنب ستلغى قدرته على الافتراس !!!

* * *

على الرغم مما تتشدَّق به الحكومة ويتشدَّق به النظام ومسئولوه على الفاضية والملبانة من أننا دولة ديمقراطية ذات سيادة (لا تضحك أرجوك)، فالواقع أنه لدينا هنا نظام حكم فريد من نوعه تشاركنا فيه كل الدول العربية والقليل من دول أفريقيا وأمريكا الجنوبية، ألا وهو نظام حكم الشخص الواحد..

رجل واحد، فى الدولة كلها يرى أنه الوحيد صاحب الرأى الصائب والنظر الثاقب والرؤية المستقبلية والبُعد الحكيم والقرار السليم وكل من سواه لا يمكنهم بلوغ هذه المكانة الفريدة النفيسة، ولأن هذا الرجل الواحد هو صاحب الأمر والنهي والكلمة الحاسمة الحازمة الصارمة القامعة فى كل الأمور فهو الذى يعيِّن الحكومة ويملك عزلها وهو الذى يعطى توجيهاته ويواجه الأمور بحكمته ويخل مجلس الشعب لو لم يرق له تشكيله أو لم يرق له أداءه أو لو زادت فيه نسبة المعارضة على الرغم من كل ما يبذله رجاله من جهد فى تزوير الانتخابات وانتقاء الناخبين وقهر وتخويف وترويع واعتقال المعارضين..

ولأن الحكومة تدرك تماماً أنها خيبا فى وطن رجل واحد فكل اهتماماتها تتوجَّه نحو إرضاء ذلك الرجل الواحد وتأييد

أفعاله حتى لو انطوت على مصيبة أو كارثة أو حتى خيانة لسيادة الوطن وأرضه وعقاراته وهكذا تتحوَّل حكومة الرجل الواحد من حكومة يفترض أن تكون وطنية إلى حكومة احتلال.. وهنا، تتخذ الصورة اتجاهاً جديداً فلو اتفقنا على أن حكومتنا هى حكومة احتلال ولبست حكومة وطنية فهذا يقودنا بالتالى إلى أن مقاومة المحتل أمر مشروع فى كل قوانين ودساتير ونظم العالم مما يعنى أن مقاومة الحكومة أمر مشروع!!..

والناس تدرك هذه الحقيقة، حتى وإن لم تعترف بها صراحة ولكن الكل يمارس أنواعاً مختلفة من المقاومة تتمثَّل فى معاندة كل قرار تصدره الحكومة وإهدار المال العام والاحتيال على قوانين الدولة واللف والدوران على كل مسئول وصاحب منصب أو سلطة فى البلاد..

حتى الأطفال يشتركون فى انتفاضة المقاومة الداخلية، عن طريق تمزيق مقعد فى أتوبيس عام، أو خربشة سيارة فاخرة فى الشارع، أو حتى فى السخرية من كل مسئول أو صاحب مظهر أنيق، بل إنه لدى الشعب وسيلة مدهشة وفريدة ومتميِّزة للمقاومة.. وسيلة تعرف باسم النكتة.. وتلك لها حكايات اخرى !!

* * *

فى كل زمن وكل عصر، انهمرت عشرات النكات من أفواه المصريين، سراً وعلانية للسخرية من الحكام والمسئولين على نحو أو آخر وكان لكل عصر سمة خاصة لنكاته وتركيبة ذكية فطرية شعبية تقدِّم نقد لاذع للعصر فى صورة سيناريو صغير محبوك ينتهى بمفاجأة تفجِّر الضحك فى الأفواه..

ففى عهد عبد الناصر كانت نكات المصريين تدور حول

www.dvd4arab.com

الديكتاتورية وزوار الفجر ووسائل القهر المتبعة فى الاستجواب وكان المصريون يتداولون تلك النكات سراً لأن نظم الأمن المتخلّفة آنذاك كانت تحاسب الناس على نكاتهم وأحاديثهم وربما على نواياهم أيضاً وعلى الرغم من كل الوسائل والنظم القهرية والقمعية فى ذلك العهد الذى ما زال الملايين يتغنون به ليل نهار لم تنجح جهة واحدة فى حجب أو منع انتشار نكتة مهما كانت لاذعة وقاسية..

ثم جاء عصر السادات وظهرت زوجة رئيس الجمهورية فى الحياة العامة لأوّل مرة. على نحو لم تعتاده مصر لذا فقد تركّزت النكات فى مرحلة ما على علاقة الرئيس بزوجته وعلى نشاطها الاجتماعى الملحوظ ومع الاضطرابات العديدة التى سادت عصر السادات من الانقلاب على مراكز القوى إلى مرحلة اللا سلم واللا حرب وحتى الانفتاح ثم حملة الاعتقالات الأخيرة وحتى مع بداية حكم السادات الذى أتى عقب حكم عبد الناصر المسيطر مباشرة كان المناخ فى حالة تقلّب سريع مثير مما ساهم فى ابتكار وإطلاق قدر هائل من النكات لم يسبق له مثيل. ولأن المناخ صار أكثر حرية من ذى قبل فقد انتشرت تلك النكات أكثر وأكثر ولم تعد هناك غضاضة من نشر بعضها فى صحف صغيرة أو كتابات فردية..

والآن فى عصر مبارك. نعرف كلنا دون حاجة للإفصاح عما تدور النكات بالضبط وكيف يتم تداولها وتناقلها على نحو مدهش.. ولكننى واثق من أن أياً من تلك النكات لم ولن تصل مطلقاً إلى الرئيس نفسه حتى ولو وصلت إلى مكتبه شخصياً: لأن القاعدة التى أعلنها النائب زكريا عزمى ذات يوم هو ضرورة ألا يصل إلى الرئيس كل ما يمكن أن يضايقه أو يحزنه

أو يثير غضبه بأى حال من الأحوال !

ولأن مبارك هو الرئيس. الذى ينبغى أن يعرف كل الحقائق المجرَّدة حتى يمكنه اتخاذ قرارات سليمة فهذا فى حد ذاته... نكتة !!!

* * *

من أهم مظاهر تخلّف الأمم أن تلجأ إلى القوة فى حسم كل خلاف فيها حول الفكر والرأي ومن مظاهر انحطاط الحضارة أن يوصف هذا الإجراء البالغ الديكتاتورية والتخلّف بعبارات أنيقة وبأهداف نبيلة سامية وكأنه من الممكن أن أقطع لسان إنسان ما لمجرَّد أن كلامه وأفكاره لا تروق لى..

وهذا الأسلوب المتخلّف صار سمة أساسية من سمات النظام بكل فروعه وأتباعه فى عصرنا هذا فالدولة تختلف مع جماعة الإخوان المسلمين وتدرك أنها عاجزة عن مواجهتها أو التفوّق عليها لذا فهى تلجأ إلى القوة وتهاجم قيادات الجماعة وتعتقلهم وتصادر أموالهم وتحاكمهم أمام محاكم عسكرية لا وجود لها إلا فى الدول الاستعمارية الطاغية ذات الاستبداد المعلن والديكتاتورية الزاهية وعندما تلجأ الدولة إلى هذا الأسلوب القمعي الذى عفا عليه الزمن فإنها تلبسه ثوب الفضيلة والشرف وحماية الأمن القومى والجبهة الداخلية وعبارات أخرى تسيل لها الدموع فى أعيننا.. من شدة الضحك !

والمؤسسة الدينية الرسمية التى تستند إلى قوة الدولة وطغيانها تلجأ فى خلافتها الفكرية إلى الأسلوب نفسه. الذى يعطى أسوأ مظهر للإسلام الذى بلغت ديمقراطيته حد من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.. ولكن

Looloo
www.dvd4arab.com

السادة الأفاضل الذين عينتهم دولة الطغيان فى مناصب لا ينبغى أن يحتلّها شخص تعينه دولة أو يعينه نظام مستبد. وجدوا أن مقارعة الفكرة بالفكرة أو محاولة هداية أى شخص يخرج عن العرف المتبع والقواعد القديمة أو مناقشة أصحاب الفكر المخالف كلها وسائل غير مجدية لأنهم لا يملكون الحجة القوية للمناقشة لذا فأسهل أسلوب لحسم الأمر وقهر الرأى والفكر هو تكفير المخالفين وحث الأمن على مهاجمتهم واعتقالهم والتنكيل بهم والدينون الرسميون يشمتون ويسخرون ويطمئنون إلى أنهم قد قهروا الفكر وقطعوا الألسنة المعارضة وصارت لهم الغلبة فى نهاية الأمر، وهذا بافتراض أن التنكيل هو نهاية الأمر وليس عندما يقف الكل أمام الخالق عزَّ وجلَّ لينبئهم بما كانوا فيه يختلفون..

وطغيان النظام ومؤسسته الأمنية وموظفوه الدينون هو أهم وأضخم وأكبر مظهر لعصر التخلّف الذى نعيش فيه والذى لا أمل لنا فى الخروج منه إلا بثورة.. ثورة حقيقية.

* * *

فى أوروبا فى العصور الوسطى، سيطرت الكنيسة تماماً على عقول الجماهير وصبغت كل شئ بصبغة دينية، واستغلّت شعور العامة الدائم بالضعف والذنب حتى تكبر وتتعملق وتسيطر وتصبح كلمتها هى العليا فوق كلمة النبلاء ورجال السياسة وحتى الملوك أنفسهم..

فماذا كانت النتيجة؟!.. عصر دموى ظالم حوكم فيه الآلاف بتهمة الهرطقة وتم تعذيبهم فى وحشية بجة إخراج الشياطين من أجسادهم ومات عدد هائل من الأبرياء والمظلومين وأعدم عدد آخر وغرقت أوروبا كلها فى ظلام دامس

لم يخرجها منه إلا حروب طاحنة شاملة جعلت الناس تفيق لما يحدث وتدرك أن الانفصال عن الزمن لا يعنى سوى الضعف والتخلّف والجهل وأن سيطرة رجال الدين على مقادير أمور لا يفقهون عنها إلا قليلاً هى الوسيلة المثلى للاخطاط والضياع والهزيمة فى النهاية.. وفصلت أوروبا بين الدين والسياسة وانطلقت تبنى حضارتها وتنهض فى عصر الظلام وتنمو وتتقدَّم لتتحوَّل فى النهاية إلى اتحاد ضخم قوي يتحدَّى أقوى دول العالم اقتصادياً وسياسياً..

وما مرَّت به أوروبا فى العصور الوسطى هو نفس ما نمر به نحن الآن ولكن لا أحد يعترف ولا أحد يواجه. فالدولة بحكمتها الرشيدة التى أدَّت إلى انهيار اجتماعى وأخلاقى شامل رأت أن تقوية المؤسسة الدينية الرسمية هو الوسيلة المثلى للتصدَّى للجماعات الدينية المتطرِّفة وأن وجود تلك الجماعات المتطرِّفة فى حد ذاته هو وسيلة مثلى لإعطاء العامة انطباعاً خاطئاً عن جماعة الإخوان المسلمين التى تحوَّلت بقرار سياسى إلى جماعة محظورة بل ولم تعد صحف الحكومة تذكر اسمها بل تستخدم اسم الدلع الذى فرضته عليها حكومة الاحتلال وهو اسم (المحظورة) دون تسمية الجماعة باسمها مما جعل الأمر أشبه بنكتة كبيرة فالعالم كله يعرف الجماعة باسم جماعة الإخوان المسلمين فيما عدا الدولة. أما بالنسبة للغرب فالنظام حريص أشد الحرص على زج اسم جماعة الإخوان المسلمين فى كل عمل تطرّفى أو إرهابى وربطها فى كل الأذهان بتنظيم القاعدة وكل هذا حتى يفزع الغرب من الجماعة وبراها عدواً رهيباً فيؤازر الحكومة والنظام فى طغيانهما إلى الأبد..

* * *

Looloo
www.dvd4arab.com

فى العصور البدائية القديمة، كانت القاعدة الأساسية فى الحياة هى قاعدة (البقاء للأقوى) إذ كان الإنسان يعتمد فى معيشته وطعامه وحماية أمنه وأمن عائلته على القوة وحدها دون سواها وكان من حق القوى فى ذلك العصر أن يقهر الضعيف ويختطفه أو يقتله أو يأسر عائلته ويسبى نسائه.. ثم تطوَّرت الدنيا وأتى عصر جديد وعصور أكثر تحضُّراً وتطوَّراً وتغيَّرت القاعدة من البقاء للأقوى إلى البقاء للأصلح أو للأفضل. وسار العالم على تلك القاعدة طويلاً حتى اندلعت الحروب العالمية الكبرى فعادت قاعدة البقاء للأقوى تسود مرة أخرى وأدركت الدول المتحاربة أنه ليس عليها أن تكون الأصلح فحسب ولا حتى الأفضل فبدون القوة لن يمكنها حتى أن تحافظ على صلاحها وفضيلتها..

وظهرت فى الدنيا قاعدة ثالثة جديدة، لم نؤمن بها فى عالمنا العربى بعد وهى أن البقاء للأصلح القوي. والضياع كل الضياع للضعيف حتى ولو كان أفضل أهل الأرض.. لهذا دعانا الخالق عزَّ وجلَّ إلى أن نعد ما استطعنا من قوة ومن رباط الخيل، ولكننا وعلى الرغم من صراعاتنا حول إرضاع الكبار والتبرُّك ببول الرسول صلى الله عليه وسلم لم نطع ما أمرنا الله سبحانه وتعالى به ولم نسع للقوة والبأس بل اكتفينا بالصراخ والوعيد وتخمير العيون وعقد الحواجب وإعلان أننا خير أمة أخرجت للناس..

ولهذا ولأسباب سلطوية أخرى كثيرة أصبحت لدينا فى مصر بالتحديد قاعدة جديدة فريدة، لا وجود لها فى العالم كله حتى الدول المتخلِّفة منه.. قاعدة (البقاء للأفسد)؛ ففى ظل

نظام الحكم الحكيم الرشيد لم يعد يرقى ويكبر ويتعملَّق فى المجتمع سوى فاسدوه فحسب ولم يعد هناك مسئول واحد يمكن أن نصفه بالنظافة وطهارة اليد فلأن الحكومة كلها راعية للفساد ولأن الدولة تحمى الفاسدين من رجالها ولأن النظام يسعى لنشر الفساد سواء عن علم أو عن جهل فقد صرنا مجتمعاً فاسداً، متخلفاً، جاهلاً، مظلماً، متعنتاً. لذا فأنا أقترح أن نستقبل كل القادمين إلى مصر بلافتة تقول: دولة الفساد ترحب بكم .. الصالحون يمتنعون !!

* * *

Looloo
www.dvd4arab.com

يا عينى يا مصر

Looloo
www.dvd4arab.com

ما رأيكم لو عدنا إلى أفلام زمان وروينا قصة تصلح لأن يمثلها أنور وجدى وليلى مراد.. قصة شاب ورث ثروة طائلة من والده الراحل، هى قطعة أرض كبيرة ومصنع.. وعندما أراد الاستمتاع بثروته فوجئ بأن الأرض توشك على البوار وآلات المصنع قديمة على الرغم من كثرة موظفيه وعماله..

وكان على الوريث أن يكافح ويتعب ويخطّط للمستقبل ويقلّل من نفقاته ويوقف حفلاته ورحلاته حتى يعيد للأرض نضارتها ويجدِّد آلات المصنع، إلا أن المحيطين به وجدوا أن هذا الحل سيحرمهم كل المتع التى يحصلون عليها فشجعوه على الحفاظ على مظهره ومواصلة احتفالاته فى الفاضية والمليانة ليغرفوا من كل ما حولهم وينشرون سطوتهم وفسادهم فى العزبة كلها..

وحتى يستقر بهم المقام، أقنعوا الوريث ببيع الأرض قطعة قطعة بحجة توفير مرتبات عمال وموظفى المصنع، ولأنهم فاسدون فقد تولوا عملية بيع الأرض وسلموها قطعة وراء أخرى لأسرة (زنون) التى سبق واستولت على العزبة المجاورة بالوسيلة نفسها.. وراح الوريث يواصل حياة الترف واللهو ويسعد بسطوته وجبروته، وهم يسلمون عزبته لعائلة (زنون) حتى باع الأرض كلها ولم ينفق من نقودها إلا النذر اليسير على المصنع، فى حين استولى أصحابه على الجزء الأكبر من ثمنها وأودعوه فى بنوك البندر وحتى لا يحاسبهم سكان العزبة وعمال المصنع على فسادهم عملوا على نشر الفساد بينهم أيضاً وكل هذا وعائلة (زنون) تسيطر على العزبة وتضع عينها على المصنع أيضاً..

ولأن الفساد يبتلع كل شيء فقد فرغت أموال الثري

looloo
www.dvd4arab.com

وأقنعته بطانة السوء ببيع جزء من المصنع، وفعل وظلّ يفعل ويفعل. وعندما خطب شيخ الجامع ليحذر العمال والموظفين مما ينتظرهم غضب الوريث وبطانته، وأحضروا مجموعة من الخفر والفتوات والبلطجية مع نبابيت قوية يضربون بها رأس كل من يفتح فمه ويعترض ويحاول قول الحقيقة أو حتى الإشارة إليها..

ولم تكتف بطانة السوء بهذا، وإنما أوغرت صدر الوريث على الناس وأقنعته بضرورة تقوية قبضته عليهم حتى يضمن أن يرث ابنه ما ورثه وما يكاد هو يخسره، ولم يكن هناك سوى حل واحد..

* * *

درست بطانة السوء الموقف ووجدت أن العقبة الرئيسية أمامها هى أن القانون ما زال يحمى عمال وموظفى المصنع وأنه لا يوجد به نص واحد يبيح ضرب شيخ الجامع على رأسه لذا فالحل الأمثل هو تغيير القانون نفسه خاصة وأن قاضى القضاة يتحجج به وبنصوصه لمنعهم من التنكيل بالمعارضين.. وبخطة شيطانية لعبوا بعقل الوريث ودفعوه إلى رشوة كبار رجال الناحية وقام معهم بوضع نصوص قانونية جديدة تجعل تنكيله بخصومه وعلى رأسهم شيخ الجامع قانونى تماماً..

وعلى الرغم من اعتراض معظم موظفي وعمال المصنع بل ومعظم سكان العزبة على تغيير القانون فقد تم تغييره ووافق عليه حتى الموتى والمهاجرين لأن الخفراء والبلطجية وقفوا على أبواب اللجان.. كل هذا وعائلة (زنون) تشترى أجزاء المصنع كما اشترت العزبة قطعة بعد قطعة حتى صارت تمتلك أكثر من نصفه وعندئذ طلبت وضع يدها

على ممتلكاتها وراحت تشكو لكل بلاد الناحية من ظلم الثري وبطانته الذين باعوا لها أرضهم ومصنعهم ويمنعونها من الاستيلاء على حر مالها واستصدرت قراراً من شهبندر التجار بالسماح لها بوضع يدها على ممتلكاتها فى العزبة والمصنع..

وهكذا تكرَّر ما حدث فى العزبة المجاورة وجاءت عائلة (زنون) لتستولى على العزبة والمصنع بالقوة وبتأييد من البلاد المجاورة على الرغم من اتفاق الجنلتمان بينها وبين الوريث وبطانته وهبطت كلمة النهاية على تترات الفيلم الأخيرة والمشاهد يمصمص شفتيه على حماقة الوريث وبطانته التى جعلته يبيع أرضه ومصنعه لنفس العائلة التي استولت على عزبة جاره من قبل..

هل يبدو لكم كل هذا فيلماً تقليدياً أو ميلودراما مضحكة تفتقر إلى المنطق وإلى عقد وحبكات الدراما؟!..

ماذا إذن لو أن هذا واقع نعيشه فى مصرنا الغالية المحروسة التى نبيعها قطعة قطعة للأجانب وربما لنفس اليهود الذين اشتروا جزءاً من (فلسطين) من قبل ثم استولوا على ما تبقى منها بالقوة بموافقة دولية وتآمر عالمى؟!..

قديماً، كانت العبارة المألوفة هى أن (مصر) للمصريين، وحديثاً لم تعد (مصر) أبداً للمصريين..

* * *

كل الجنسيات لها سفارات تحميها فى (مصر) ورجال الشرطة والأمن (المغاوير) لا يجرءون على المساس بأجنبى واحد تحت سماء (مصر) ليس احتراماً للسياحة ولا تنشيطاً لها ولا حتى توقيراً لروح الكرم والسماحة المصرية ولكن لأنهم لو

Loolooo www.dvd4arab.com

مسوا شعرة واحدة من أجنبى فستزأر سفارته فى وجوههم وتبرز مخالبها السياسية وتغرسها فى لحمهم وستصرخ صحف الغرب والشرق وتصبح الفضيحة بجلاجل وأجراس.. لذا فرجال الأمن والشرطة يسمحون للأجانب بكل شئ ويفرغون غلهم فى المصريين من أبناء بلدهم بدءاً من إجراءات الوصول فى المطار حيث تنتهى إجراءاتهم فى لحظات ولا يشتبه فيهم إلا نادراً باعتبار أن كل أجنبى هو حتماً شريف ونزيه وكأنما ليست لديهم سجون فى أوروبا وأمريكا مليئة باللصوص والمجرمين والقتلة وقطاع الطرق أيضاً. أما المصريين فتكون كل الإجراءات معهم متعسفة، قاسية، خشنة، غليظة، وكلهم مشتبه فيهم باعتبارنا كلنا حرامية وأفاقين ونأكل مال النبى..

وإذا ما خرجنا من المطار سالمين فهيهات أن يخطر ببالنا أن نصطحب أولادنا إلى أية منطقة سياحية مصرية، بها آثار أجدادنا القدامى ففى كل تلك الأماكن تلقى كل التقدير والاحترام لو أنك أجنبى حتى لو كنت من بوركينا فاسو. أما لو كنت مصرياً فأنت مشتبه فيك وينبغى تفتيشك وبهدلتك هذا لو كانوا سيسمحون لك بالدخول من الأساس. باعتبارك إرهابى إلى أن يثبت العكس!! كل هذا لأنك مواطن مصرى لا كرامة لك فى بلدك ولا أحد يعنيه أمرك أو يبالى بك ربما لأنه لا توجد سفارة لك، تحميك فى (مصر) من تعنت وتعسف وجبروت واستبداد أقرانك المصريين.

فذات مرة ارتكب شخص ما مخالفة واضحة فنهره أحد الضباط فى قسوة بالغة فما كان من ذلك الشخص المصرى الأصل إلا أن أبرز جواز سفر أمريكى وهنا اختلفت الصورة تماماً، واعتذر له ضابط الشرطة وراح يسترضيه وبلغ

الأمر ما يشبه الاستعطاف لمجرد أن المواطن السابق صار أمريكى الجنسية له سفارة تحميه فى (مصر)..

وكل هذا فى المعاملة فحسب أما ما يخص بيع مصر، فهذه كارثة أخرى..

* * *

عندما قامت ثورة يوليو كانت مصر رأسمالية وكانت دعوة طلعت حرب رحمه الله قد أتت ثماراً يانعة وأصبحت لدينا صناعات وطنية وبنوك وشركات مصرية خالصة وعلى الرغم من هذا رفعت الثورة شعار القضاء على الرأسمالية الأجنبية المستغلة. ورفعت أيضاً شعار التصنيع من الإبرة إلى الصاروخ وانتظر الناس فى لهفة أن يروا صاروخاً مصرياً أو حتى طائرة أو سيارة أو بسكليتة مصرية الصنع. ولكنهم وفى ظل الثورة الرشيدة لم يجدوا حتى الإبرة وحتى لحظة كتابة هذه السطور لا يمكنك شراء إبرة مصرية الصنع لها طرف حاد أو غير قابلة للصدأ !!

ففى أواخر السبعينات حصلنا على صفقة مدهشة لتصدير الثياب المصرية ولكنها ألغيت لأن الدبابيس التى تستخدم لتثبيت الثياب أصابها الصدأ فأتلفت الأقمشة !! أما عن علب الخضار المحفوظة التى صدرناها إلى أوروبا، فقد صدأت وأفسدت الطعام وأفسدت معه سمعتنا على المدى الطويل..

وبدلاً من أن يجد الشعب صناعة وطنية واعدة وجد معتقلات وتنكيل وتعذيب وكبت للرأى والحريات وسجون جماعية وحمزة البسيونى وغيره. والهارت كل القيم وصدرت عشرات القرارات التى تضم التأميم فى شقيه الصحفى

Looloo
www.dvd4arab.com

والرأسمالي ومصادرة الأراضي والحريات وأفكار ظاهرها الرحمة وباطنها عذاب مستعير.

خفضوا إيجارات المنازل فنشأت أزمة الإسكان وخلوّات الرجل وشقق التمليك وراح الغلابة في أرجل الأثرياء. وفتحوا التعليم على البحري دون حساب لاحتياجات المجتمع حتى صارت الشهادات لا قيمة لها حتى شهادة الماجستير أو الدكتوراة فالكل يعاني من بطالة رهيبة وغياب لفرص العمل وخاصة مع قاعدة (اللي له ضهر ماينضربش على وشه).. وجاء الانفتاح مع عصر السادات وكثر الحديث عن الرخاء وصدَّق الناس الغلابة البسطاء وانتظروا رخاءًا وهمياً ولكن العذاب والبؤس تضاعفا وانتشرا وغمرا الطبقة البرجوازية والمتوسطة فلم تعد تجد ما يكفي قوت يومها. ولم تجد أمامها سوى التسوّل أو الرشوة والانغماس في مستنقع فساد حتمي وإجباري..

ووصفوا السادات بأنه فرعون مصر الحديث وتصوَّروا أن القضاء عليه وعلى عصره سيعدل الميزان المقلوب، وسيعيد إحياء الطبقة المتوسطة المطحونة قبل أن تفنى وتندثر.. واغتالوا السادات في يوم نصره و.. وانقلبت الدنيا..

* * *

اغتيال السادات كان نقطة تحوّل عنيفة في مسار مصر كلها هزَّت المجتمع كله من الأعماق وولَّدت موجة عارمة من التوقعات الكبيرة ما بين المغرقة في التشاؤم والمحلقة في سماء التفاؤل ولكن معظم الشعب انزوى صامتاً منتظراً النتائج على الرغم من حظر فيلم الاغتيال عندئذ والذي رأيناه جميعاً فيما بعد وشاهدنا فيه كيف تجاهل الكل الرئيس القتيل واهتموا بحماية نائبه من حيث مبدأ أن (الحي أبقى من الميت)..

وبدأ في مصر عصر جديد سمعنا في أوّله حديث ديمقراطي وشاهدنا الإفراج عن مئات المعتقلين الذين ختم السادات حياته بإعادتهم إلى المعتقلات التي أعلن هدمها. وشنفت آذاننا وعود عظيمة حول حريات زاهية وصحافة قوية وأقلام غير مقصوفة.. ولأننا شعب طيب وساذج و(عبيط أيضاً) فقد صدقنا وتصوَّرنا أن ما فات قد مات وأن (بكرة أحلى من النهاردة) وجاء بكره. وبعده. وبعد بعده وتبخَّرت الوعود كلها في الهواء وفوجئنا أننا في عهد جديد بالفعل جديد في أسلوبه وتعامله مع كل الأمور..

عهد يؤمن بأنه (إن لم تسنح فافعل ما شئت). وهذا يعني أن اللعبة بسيطة للغاية فهذا العهد لا يستحي ولهذا فهو يفعل ما يشاء دون أن يبالي بردود الأفعال أو غضب الشعب حتى ولو ضربنا رءوسنا في أي جدار يخلو لنا وهذه هي الحرية .. حرية اختيار الجدار الذي نضرب رءوسنا فيه !! فالانتخابات والاستفتاءات يتم تزويرها عيني عينك والصحف تكتب وتصرخ وشهود العيان من القضاة وكبار رجال الدولة ولا أحد يبالي أو يداري وبالطبع لا يعتذر. ومن الواضح أنها سياسة مدروسة اعتمدت على سلبية الشعب والمجتمع ونظرية (اللي يتجوز أمي أقوله يا عمي). وبنت خطواتها اعتماداً على أن الجعجعة لا تؤذي أو تضر وأن الصحافة والناس سيتحدثون وينتقدون ويصرخون ولكن لا أحد منهم سيقاوم على نحو فعلي..

العصر الذي وعدونا بحريته وديمقراطيته صار أضخم عصور الطغيان والاستبداد والفساد وكل شيء فيه يسير على نحو قانوني تماماً فيما عدا الانتخابات الأولية التي تفرز نوَّاب

Looloo
www.dvd4arab.com

سيد قراره والذى تصدر عنه التشريعات الرئيسية.. وباللكارثة..

* * *

على الرغم من كل ما نقرأه فى صحف الحكومة عن الديمقراطية وزهاءها. والحريات وعظمتها والتطوّر الذى ما بعده تطوّر فلا أحد منا يستطيع أن ينكر أننا لم نشهد فى حياتنا كلها فساداً مثلما نشهد فى هذا العصر. ولعل أكبر مساوئ هذا الفساد هو رفض الرسميين الاعتراف به وإصرارهم على عدم وجوده ربما لأن معظمهم غارق فيه حتى أذنيه والفساد لا يستنزف وقتنا وأموالنا فحسب ولكن حياتنا وحضارتنا وأخلاقنا وقيمنا أيضاً وينقلنا كلنا إلى مستنقع عفن نغرق فيه حتى النخاع ونتنفس هواءه الملوَّث فلا يعود باستطاعتنا تنفس الهواء النقى مرة أخرى..

فمشكلة الفساد أنه أشبه بوباء سريع الانتشار. ينتقل بسرعة من فرد إلى آخر فى غياب قانون رادع وعادل يتم تطبيقه على الغنى قبل الفقير والكبير قبل الصغير..

ولأن مترفيها فسقوا فيها وصار تجاوز القانون وتحطيمه من سمات علية القوم وأصحاب السلطة وصار دليلاً على رُقى صاحبه كان من الضرورى أن تسمح الحكومة للأفراد بالفساد حتى يسكتوا عن فسادها وأن تبيح لهم تحطيم القانون حتى لا يطالبوها بالالتزام به خاصة وأنها لا تنوى هذا إلا فيما يحقق فائدتها أو يتيح لها التنكيل بخصومها أو حتى تفادى جبهة قوية تحظى بتأييد ضخم فى الشارع المصرى.

فمثلاً لأن جبهة الإخوان المسلمين قوية وذات ثقل ملحوظ (وحقيقي) فى الشارع فالحكومة تحاربها طوال الوقت بكل الطرق والوسائل الممكنة. بدءاً من وصفها دوماً بالمحظورة

وانتهاءً بمحاربة أفرادها واعتقالهم ومصادرة أموالهم التى جمعوها بالحلال على الرغم من أن الحكومة نفسها تترك ملياردیراتها الذين جمعوا رءوس أموالهم بالفساد والاحتكار وسيطرة المال على الحكم..

وبغض النظر عن اتفاقى أو اختلافى الشخصى مع الإخوان المسلمين إلا أنه من المضحك أن تعتبرهم الحكومة تنظيماً محظوراً وهى تعترف فى الوقت ذاته بقوتهم فى الشارع وربما بأن أغلبية الشعب تؤيدهم وتنفر من الحزب الوطنى ثقة منها فى أنها حزب الديكتاتورية والسيطرة وصاحب الفكر المنغلق الذى يرفض حتى أن ينافسه حزب آخر؛ لأنه يعرف مقدماً نتيجة أية منافسة شريفة..

* * *

الانتخابات مزوَّرة والاستفتاءات صورية والنتائج دوماً وهمية لا تعبِّر إلا عن إرادة الحاكم التى تتصوَّر الحكومة أن مشيئته مشيئة عليا لا يمكن تجاوزها أو حتى مناقشتها..

وهذا أمر طبيعي وفقاً للنظام المعمول به فى مصر فالحكومة يختارها الحاكم وحده ولا شأن للشعب فى اختيارها ولا يملك محاسبتها أو حتى عزل وزير واحد منها وذلك وفقاً لدستور وقانون القوة ولهذا فلا فارق بين حكومة وطنية أو حكومة احتلال فالشعب فى الحالتين ليس له قرار أو شأن فيها وكلتاهما لا تباليان بالذى لا يملك لها نفعاً ولا ضراً وإنما تركزان اهتمامهما على الحاكم وحده حتى لو كانت إرادته ضد إرادة الشعب كله.. وهذا نظام ديكتاتورى واستبدادي من الألف إلى الياء وعلى الرغم من هذا فقد كنا مستعدين للتعامل معه على ألا يصرون على وصفه طوال الوقت بمناسبة وبدون

Loolop
www.dvd4arab.com

مناسبة بأنه نظام ديمقراطى زاهى إلى الحد الذى يخرق عيوننا.. ولكن هذا يعيدنا إلى المبدأ الأساسى (إن لم تستح فافعل ما شئت)..

ولقد بدا هذا المبدأ. كأوضح ما يكون فى صفقات بيع مصر قطعة قطعة والتى تقودها الحكومة تحت مسمى (الخصخصة) والتى حملت أكبر قدر ممكن من الفساد العلني واللامبالاة بالشعب وأموال الشعب ومستقبل الشعب هذا لو أن وزراء الحكومة ما زالوا يدركون أنهم يحكمون شعباً.. المصانع والشركات تم تقييمها بأقل من سعر الأرض المقامة عليها وبيعت رسمياً ونحن نتفرَّج وعينى عينك ولسنا ندرى حتى أين ذهب ثمنها مع حديث المسئولين عن الفقر والفاقة ونقص المواد طوال الوقت..

صفقة بنك مصر الدولي واجهت انتقادات عديدة أهمها أن يكون وكيل المشترين هو نفسه مثمن البيع وأن يتم هذا بمعرفة الوزير والكبار ومباركتهم إلى الحد الذى دفع مسئولة كبيرة إلى أن تقول فى اجتماع رسمى أنها (مغسلة وضامنة جنة) وهذه قمة الخلل فى الفكر والانحراف فى الضمير..

وعلى الرغم من الانتقادات والمؤاخذات والاتهامات بالتغاضي والفساد والتربُّح وشبهة الرشوة أيضاً التزمت الحكومة شعار (ودن من طين وودن من عجين) وتمت الصفقة.. واحنا قاعدين!!..

* * *

تعلمنا من دراسة الطب أنه هناك نوع من الخلل النفسى يدفع صاحبه إلى المبالغة فى الحديث عن إمتلاك ما ينقصه فالرجل الذى يتباهى بقدراته الجنسية يعانى من عجز

ما يحاول إخفائه. والشخص الذى لا يتوقَّف عن الحديث عن قوة شخصيته ضعيف إلى حد الاستكانه والمرأة التى لا تكف عن الحديث عن سعادتها الزوجية هي زوجة تعسة محبطة. ولعلنا من المنطلق نفسه ندرك لماذا تكثر الدولة من الحديث عن الحرية والديمقراطية وحرية الرأي !! وهذا الحديث يكثر دوماً كلما اقتربنا من موسم انتخابات أو استفتاءات وكلما تمت عمليات قمع عنيفة أو حتى موجة اعتقالات فجرية قوية..

تماماً مثل الحديث عن الرخاء وتحسُّن أحوال المعيشة وإنجازات الدولة العظيمة والذى يكثر فى المعتاد مع الأزمات الاقتصادية وانخفاض مستويات المعيشة ودخول شريحة جديدة من المجتمع فى منطقة الفقر والحاجة فى نفس الوقت الذى ترتفع فيه شريحة أخرى إلى مستويات مارينية أو ساحل شمالية أو حتى معمورية !!

والدول الديمقراطية (بجد) لا تتحدَّث إلا فيما ندر عن ديمقراطيتها وحرية المواطن فيها وتجد نوَّابها منشغلين فى البحث عن سُبل لتحسين مستويات معيشة مواطنيها (بحق وحقيق) أو رفع بعض المعاناة عن كاهلهم..

أما هنا فكلنا نحيا فى معاناة حقيقية ومستمرة ألفناها واعتدناها ولا تحاول أية حكومة من حكومات الاحتلال الداخلى رفع بعضها عن كاهلنا أو حتى تخفيف البعض الآخر كما لو أنها فى واد والشعب فى واد آخر.. وهذه العبارة الأخيرة حقيقية تماماً فالحكومة والحزب الذى يدَّعى عدم صلته بها لا يشعران حتى بما يدور (فعلياً) فى الشارع المصرى بدليل أنهما نسيا أن (مصر) بها فقراء ومحتاجين ومساكين ما زالوا يحلمون بوظيفة بسيطة ودخل معقول أو حتى رغيف عيش (أمل أبو شلن)

Loolbo

يأكلونه مع قطعة جبن قديمة هذا لو أن مرتباتهم تكفى العيش والجبنة سواء قديمة أو حديثة..

الحكومة لم تعد حكومة كل المصريين وإنما صارت حكومة الأثرياء فقط ليس لها من هم سوى راحتهم ورفاهيتهم ويخوتهم وشاليهاتهم وفيلاتهم وسياراتهم الفارهة وحتى سجائرهم وسيجارهم.. وإحنا.....!!!

* * *

من أهم الدروس التى تعلمتها فى السياسة أن الطغاة والجبابرة لا يقرأون أبداً كتب التاريخ أو أنهم لا يستفيدون منها على أقصى تقدير فالتاريخ يؤكِّد لنا أنه ما من طغيان امتد إلى النهاية أبداً وأنه مهما كانت قوة الطاغية وزبانيته فنهايتهم تكون دوماً عنيفة أو مأساوية وما من طير طار وارتفع إلا كما طار وقع.. المشكلة الرئيسية فى كل الطغاة هو أنهم يوقنون أن ما أصاب غيرهم أو قبلهم لا يمكن أن يصيبهم هم لأنهم الأذكى والأبرع والأحوط أو (وهذا هو الأهم) الأقوى..

ولضمان البقاء يحيطون أنفسهم دوماً بدواعى القوة والبأس كل من وجهة نظره فالبعض يعتمد على جيش قوى أو جهاز أمنى شرس أو بوليس سرى وحشى بلا ضمير أو حتى أموال ورجال أعمال أو قوة عظمى يجد فيه السند ووسيلة البقاء دون أن ينتبه إلى ما فى طاعتها من خيانة لشعبه ومنصبه وتاريخه وضميره.. والطريف أنهم جميعاً يسعون لتمجيد أنفسهم والإبقاء على ذكراهم عبر إنشاء عشرات الأماكن التى تحمل اسمهم وتماثيلهم وصورهم حتى تنتابهم لوثة نرجسية تجعلهم غير قابلين لتصديق أن فرداً واحداً لا يحبهم أو مستعد للتضحية بحياته من أجلهم..

ولأن البطانة تكون دوماً أكثر ذكاءً ودهاءً من الطاغية نفسه وإن ظلت تعمل على إقناعه بالعكس لتضمن استمرارها فهى تغذي فيه هذا الشعور النرجسي وتزين له كل عمل استبدادى وتضفى عليه أناقه أو شرعية زائفة أو تغلفه بالسكر حتى يسهل بلعه وهو يبتلعه بالفعل حتى ولو كان بدون سكر لأنه يريد أن يبتلعه وأن يشعر بالمجد والقوة والسطوة والسلطة..

ولهذا يكره الطاغية أية شخصية وطنية تحظى بتأييد وحب شعبين حقيقيين ويعتبرها خصمه اللدود ربما لأنها تكشف زيف ما يحيط به لذا فهو يسعى لتدميرها وتحطيمها وإقصائها عن الساحة حتى ينفرد بالمجد والتقدير.. ولكن كتب التاريخ تؤكِّد أن الطاغية يذهب والوطنى يبقى ويخلد وربما ليواجه طاغية ثان وثالث ورابع أيضاً..

ومن منطلق البحث عن القوة والتفرُّد رأت الحكومة أن تتزاوج مع رءوس الأموال ومش مهم احنا !!

* * *

الحكومة لديها شعور دائم بأنها ذكية ولّماحة وبأننا شعب أحمق جاهل لا يعجبنا العجب ولا الصيام فى رجب ونحن لدينا يقين أنها حكومة عبيطة متعجرفة منفصلة تماماً عنا ولا تشعر بنا أو تهتم بمصالحنا بل وليست حتى من طينتنا فالحكومة انشغلت بفئة واحدة من المجتمع وهى فئة القادرين فراحت تزيدهم راحة ومتعة وتخفض من أجلهم أسعار السلع المستوردة والسيارات واشتراكات الإنترنت فى نفس الوقت الذى تضاعف فيه سعر الكيروسين فيرتفع سعر الخضروات والفاكهة ووسائل النقل وتتحوَّل حياة الفقراء إلى جحيمين بدلاً

Loaloa
www.dvd4arab.com

من جحيم واحد..

وعندما يعترض الفقراء أو يتظاهرون اعتراضاً على العذاب الذى أحاطتهم به الحكومة يفاجأون بها تخبطهم بقوات أمن مركزى لا يُدرك أفرادها أنهم جزء من الشعب نفسه الذى يهوون على رأسه بعصاهم الغليظة ويلقون عليه الغازات المسيلة للدموع ويعتقلون من يمكن أن يكونوا أبناءهم أو أبناء أخوالهم أو عمومتهم.. حتى الضباط، الذين يقودون تلك الحملات الهمجية لقهر الرأى وقمع الاعتراض والتظاهر لا يفكرون لحظة واحدة فى أنهم جزء من المنظومة نفسها وأن الغلاء سينلهم أسرهم كما النهم أسر المتظاهرين..

الوحيدون الذين يفلتون من عاصفة الغلاء والعذاب هم فئة القادرين الذين تتضاعف ثرواتهم فى الأزمات ويحيطون بالحكومة وتحيطهم هى برعايتها وحنانها وتصدر لهم القوانين المناسبة التى تضمن استمرار ثراءهم وتفوقهم وسيطرتهم معها على الشعب الجاهل الحافى المتبطر على نعمة الحكومة..

وحتى ينعدل الميزان (لمصلحة الأثرياء طبعاً) لم تكتف الدولة بتشجيعهم وإنما اعتمدت عليهم فى تشكيل الحكومات واحتلال مقاعد الوزراء وكبار رجال الدولة والمسئولين وهكذا غاب الفقراء عن الساحة تماماً ولم يعد هناك من يهتم بهم أو يعنى بشئونهم فلم يجد بعضهم أمامه سوى حرفة التسوّل أو احتراف السرقة و(التثبيت) !! استغلالاً للغياب الأمنى عن الشارع مع انشغاله بحماية المسئولين ورجال الدولة والأثرياء والمترفين وحدهم..

ومع الثراء المستفز لفئة محدودة أصبحت الفئات البسيطة طامحة إليه تحلم به وتتمناه مما أدى إلى فساد عارم فى

هيكل المجتمع كله وحالة من البلطجة امتدَّت من أعلى إلى أسفل.. للأسف !!!

* * *

على الرغم من كل الأخطاء التى ترتكبها الحكومة فى حق الشعب لم نسمعها مرة واحدة تعتذر أو تعترف بخطأ ما ربما لأنها تشعر بالفعل أنها حكومة احتلال أتت بقرار سيادى وليس بإرادة وطنية حرة فلم يعد يعنيها سوى شخص واحد (حزر فزر مين؟!)..

وحكومة الاحتلال المكوَّنة من رءوس أموال وأثرياء ومترفين اعتادت أن تلقى أخطاءها دوماً على الآخرين أو على مبررات وتعليلات واهية تستغل جهازها الإعلامى الضخم لإقناعنا بها فى أسلوب ساذج يجعلنا نضحك منها وعليها.. والدليل على حماقة الحكومة وسذاجتها هو أن الأدلة حولنا فى كل مكان لتثبت لنا أنها تخدعنا ففى كل مناسبة (وحتى بدون مناسبة) تعايرنا الحكومة بعدد السكان باعتباره معوقاً للتقدُّم والإنتاج دون أن تنتبه إلى أن نصف ما نستورده وما يستورده العالم يأتى من (الصين) التى تمثل ربع سكان العالم والتى تبلغ الكثافة السكانية فيها أقصاها ومن ناحية أخرى تسعى الدولة لإقناعنا بأن السبب هو التطرُّف والتيارات الإسلامية على الرغم من أن (إسرائيل) تضم فئة شديدة التطرُّف تدعى (الحريديم) تطلق لحاها وتتزمَّت فى تطبيق تعاليم التوراة وتخرج بفتاوى عجيبة وغريبة تفوق كل ما يمكننا تخيله من تطرُّف..

المشكلة لا تكمن إذن فى عدد السكان أو الفقر أو حتى التطرُّف إنها مسألة نظام حكم ديمقراطى أو حتى نصف ديمقراطى يسمح بكشف الفساد وإنقاذ الاقتصاد والتعبير عن

Looloo
www.dvd4arab.com

الرأى وتطوير النظم الإدارية والمالية.. وخن نفتقد الديمقراطية ليس فى نظام الحكم فحسب ولكن فى حياتنا اليومية أيضاً بدءًا من أساليب تربيتنا لأطفالنا وحتى أكبر شئب فينا.

بيوتنا ومدارسنا صورة مثالية للديكتاتورية والقهر وفرض الرأى وخطيم الإرادة والحكومة هى التطبيق العملى لهذا خاصة وأنها تنوغّل فى الفساد يوماً بعد آخر حتى أن منتهى أمل الشاب العادى أن يجد وظيفة فى الحكم المحلى حتى يمكنه أن يثرى (من الحرام طبعاً) ويربى أولاده من مال الجحيم.. أما الجهاز الإدارى نفسه فمنتهى منتهى الفساد ونظرة واحدة إلى مديريات الإسكان تثبت هذا وبشهادة الشهود..

* * *

لا أحد يستطيع أن يدعى وجود الفساد في دولة واحدة بل الفساد منتشر فى العالم أجمع حتى الدول المغرقة فى الديمقراطية (الحقيقية وليست المزيفة) ولكن فساد دولتنا متميز للغاية فهو فساد من القمة إلى القاع ومن الكبار للصغار والأسوأ أنه أكثر انتشاراً بين الكبار الذين أدركوا أن البلد أصبح عزبة لذوى الجاه فوجدوها فرصة ليغرفوا منها ما أمكنهم قبل أن يزول عصر البلطجة والوقاحة والفساد العلنى (عينى عينك) ويأتى عصر آخر محترم ينكشف فيه أمرهم وتضيع معه فرصتهم فينكمشون إلى أحجامهم الحقيقية.. ومأساة مصرنا الغالية هى أننا نرفض الاعتراف بمساوئها ونقائصها ونصر على أنها أم الدنيا على الرغم من أنها تدنّت إلى أن صارت لا تساوى حتى تابع ثالث للدنيا بل أنها فى هذا العصر (المبارك) لم تعد لها أدنى مكانة بين الدول العربية نفسها فمابالك بالدنيا؟!..

وإذا ما تطرقنا لهذه الحقيقة (المُرة) فالعديدون يعترضون ويصرخون ويحتجون ويخرجون علينا بعبارات رنانة وخطب عصماء وكلمات كبيرة عظيمة لن تساوى شيئاً فى الواقع لأنه لن يصحبها فعل واحد يمكن أن يدفعنا إلى الأمام.. وحتى عندما نتعامل مع الشارع نجد تعصباً أعمى ورفض عنيف لكل شئ وأى شئ باسم الدين والتقاليد والأخلاقيات ونفس الكلمات الرنانة التى تسمعها فى السياسة والتى لا يقابلها عمل حقيقى أو نافع...

وقبل أن نغضب ونثور تعاوا نسأل انفسنا وخن الذين ندّعى أننا مازلنا خير أمة أخرجت للناس مالذى قدمناه للعالم، خلال القرن الماضى كله؟!... ما المبتكرات أو الاختراعات أو الكشوف العلمية أو النارخية أو حتى الإنسانية التى أضفناها للدنيا فى مائة عام (دون أن نكرّر الحديث الممل، عن حضارة السبعة آلاف عام) ؟!...

الجواب-للأسف- هو أننا لم نقدّم شيئاً سوى الغضب والرفض والاحتجاج ورفض كل تطوّر ومعاداة كل تقدّم وتكفير كل أجنبى وعقد الحواجب والتهديد والوعيد والحديث عن الجحيم والنار والعذاب وترويع الآمنين وقتل الأبرياء دونما ذنب جنوه والتمادى إلى درجة اعتبارهم شهداء لأننا قتلناهم بلا ذنب جنوه ولا إثم ارتكبوه..

* * *

ديننا جميل عظيم بسيط متسامح، عقلانى يراعى نزعات النفس البشرية ويسعى إلى تهذيبها ودفعها إلى رقى حضارى لم يبلغه دين آخر وسياسة دولتنا حامدة متعجرفة عصبية فاسدة أوقعت معظمنا فى ضيق مالى واقتصادى

Looloo
www.dvd4arab.com

واجتماعى وإنسانى...

ولأننا منذ طفولتنا تعلمنا ألا نفكّر وأن نطيع الأوامر بلا مناقشة وتعوّدنا السكوت والسكون والاستكانة فقد تمادت الحكومات فى طغيانها ووصلنا إلى مرحلة الاستبداد والبلطجة والوقاحة ولم يعد النظام يبالى بشئ بل وضرب عرض الحائط بكل الأخلاقيات والنظم والقواعد باعتبار أنه خالد لن يمس والشعب لن يملك الثورة لأنه يقبض عليه بقبضة من فولاذ...

ولقد شعر الشعب بتلك القبضة بالفعل واختنق منها خاصة وأنها تضيق يوماً بعد يوم وتبلغ مرحلة إعتصار عنقه بلا رحمة حتى لم يعد يحتمل أو يطيق العيش فى هذا البلد فثار... لم تكن ثورة تقليدية يخرج فيها الناس لمهاجمة الأمن وإحراق السيارات وقلب الأوتوبيسات وإنما ثورة تفجّرت فى أعماق الأعماق وصنعت موجة عنيفة من الرفض والعداء لكل ماينتمى للدولة من قريب أو بعيد حتى ولو كان عسكرى دورية غلبان...

ولقد تبدّت هذه الثورة أوّل ماتبدّت فى تكفير الحكومة والدوله ورجال الأمن والساسة بالطبع وتطوّر هذا إلى تعنت دينى قد لا يدرك أصحابه أنفسهم أنه إنعكاس لغضب اقتصادى أو اجتماعى أو حتى سياسى مكبوت يحاول الإنفجار ويوشك عليه فى أية لحظة !!

والأمن يرصد الغضب ويسجله ويصنع له ملفات كبيرة ويواجه أصحابه ويعتقلهم وينكّل بهم على الرغم من أنه يعرف أسبابه ولكنه يتبع سياسة الدولة (ودن من طين وودن من عجين) وينفذ الأوامر دون مناقشة مادام يقبض مرتبه وحوافزه ومكافآته بالتمام والكمال وزيادة حبتين كمان. دون أن

ينتبه لحظة واحدة أنه يقبض كل هذا من عرق الشعب الذى يهوى على رأسه بالنبابيت فى المظاهرات من باب (حسنة وأنا سيدك) وأن مقام العبد من مقام سيده ومادام الأمن عبداً للنظام فمن مصلحته أن يقوى النظام وليس من مصلحته أن يقوى الشعب .. ولهذا قصة..

* * *

قديماً حفظنا عبارة جميلة تقول: الشرطة فى خدمة الشعب وهى عبارة موجزة تضفى الاحترام والتوقير على رجل الشرطة وتجعله رمزاً للحماية والأمن والأمان وتصنّفه فى فئة حماة الوطن... وجاء عصر السادة والعبيد ... العصر الذى بدأت فيه فئة من المجتمع تتعالى على باقى الفئات وتعتبر نفسها أسياد البلد ومادامت أسياداً فالباقون حتماً مجرّد عبيد إحساناتها وخدامين أبوها على الرغم من أن أبوها كان أقل من الخدامين فعلياً...

ومع ذلك العصر لم تعد الشرطة تقبل بكونها فى خدمة الشعب باعتبار أنها فرع من السادة الذين ينبغى أن يخدمهم الشعب ويلحس تراب جزمتهم أيضاً ولما لم يكن من اللائق أمام المجتمع الدولى الذى تعمل له الحكومة ألف حساب أن تعلن الشرطة الحقيقة وتقول: إن الشعب فى خدمة الشرطة فقد تفتّق ذهن أحد عباقرة الأمن عن شعار جديد وهو: الشرطة والشعب فى خدمة الوطن...

ولأننى مواطن بسيط وثقافتى محدودة فقد حيّرنى هذا الشعار الجديد لأننى كنت أتصوّر أن الوطن ليس الأرض والمبانى المحيطة بنا فحسب ولكنه الشعب أيضاً وانه من المفترض أن تكون الحكومة جزءاً من الشعب ومنها الشرطة أى أن المواطنين

Loolooo

والشرطة وحتى الحكومة هم الشعب فكيف يفصل الشعار بين هذا وذاك، بل لماذا تم تغيير الشعار من الأساس؟!

والواقع أن الشعار القديم لم يعد يصلح بالفعل فى زمننا هذا بعد أن كثر الأسياد وتضاعف العبيد فكل من يحمل لقباً صار (باشا) من رجال الجيش والشرطة وأعضاء مجلسى الشعب والشورى وكبار بلطجية الحزب ورجال المال والأعمال وحتى تجّار الكيف والصنف وأبناء الكبار ونسائبهم وأحياناً جيرانهم ومعارفهم وأصبح إللى مالوش ضهر يروح فى ستين داهية وفقاً للدستور الجديد ولحالة البلطجة القديمة...

أصبح السادة هم نصف المجتمع على الرغم من أن الكبار هم خمسة فى المائة فقط منه ولكن أتباعهم بالمئات والآلاف !!!

كل هذا والفساد متواصل ومستمر ولا يجد من يوقفه أو حتى يلتفت إليه لأن الكل فاسد فمن سيلتفت إلى من؟!..

* * *

مديريات الإسكان فى مصر هى بوتقة الفساد الثالثة بعد الحكومة ورجال أعمالها واللعب فيها بلغ حده الأقصى حتى أن موظفيها يشعرون أنهم لا يعملون فى مصر وإنما فى دول الخليج مع فارق واحد وهو أن كل مليم يدخل جيوبهم حرام فى حرام.. فالمقاول يسعى لتوفير الخامات وسرقة كل ما يمكنه سرقته بعد أن ألزمته دواوين الحكومة بأسعار قديمة لا تتناسب مع ما يفعله إمبراطور الحديد والصلب يومياً والموظف يرى أنه لابد وأن يقتسم الغنيمة وخاصة عندما يرى المهندسين الأفاضل ومديرو العموم ورؤساء الأقسام يسرقون وينهبون ويرى الفساد حوله فى صرف المستخلصات وتقدير الأسعار

والرشوة الواضحة غير المقنّعة والتى يحصل عليها الكل من أصغر عامل وحتى الوزير نفسه مع حفظ المقامات والنسب..

وفساد الإسكان من الغفير إلى الوزير يزكم الأنوف ويخزق عين الأعمى ولكن ولأن سياسة الحكومة فى العصر الحالى تعتمد على مبادئ ثلاثة وهى الوقاحة والبجاحة وقلة الأدب فالكل يمارس الفساد علناً ويطلب الرشوة ببجاحة باعتبار أنه (هو كده) والحزب يحمى الفاسدين والمنافقين وأصحاب الحظوة والنسايب والقرايب ومشاركى المصالح.. وحتى يسكت الكل عن الفساد كان من الضرورى أن يغرقوا فيه حتى النخاع وأن يغرقوا منه ليل نهار فيحصل كل شخص على قطعة كل حسب موقعه ومنصبه ونفوذه ورضا الأكابر عنه..

ونماذج الفساد فى هذا القطاع أضخم من أن يحويها عمود أو حتى صحيفة كاملة فهى تحيط بنا من كل جانب، فى عمارة يتم بناء الدور التاسع منها وأمامها لافتة ضخمة تؤكّد حصولها على تصريح ببناء ستة أدوار وفى فيلا يتم هدمها لبناء عمارة ضخمة فى شارع يكفى بالكاد لمرور سيارة واحدة وربما يحتجز أحد الكبار منه مساحة (بالبلطجة) ليركن سيارته باعتبار أن شارع الحكومة هو شارع أبوه واللى جابوه والمواطنون العاديون ليس لهم فيه نصيب..

والحكومة تتبع سياستها الرشيدة (ودن من طين وودن من عجين) لو أن الفاسد أحد رجالها، وتتحوّل إلى غضنفر عندما تواجه أحد خصومها وعندما يلجأ أحد الشرفاء للشكوى تكون المصيبة..

* * *

منذ قامت ثورة يوليو (المباركة) وضعت مجموعة من

Looloo
www.dvd4arab.com

النظم العسكرية المعقدة للمجتمع المدنى المصرى، من أسوأها وعلى قمتها نظام الشكاوى ضد المسئولين والحكوميين وذوى الحسب والنسب.. فالشكوى أصبحت مثل الشتيمة تلف وتلف لتعود إلى المشكو فى حقه بحجة إبداء الرأى والمشكو فى حقه سيبدى رأيه بأنه برئ وغلبان وما يلوّث فمه هو قليل من الكاتشب وليس دم ابن يعقوب وهكذا يفلت من العقاب ويضرب الشاكى رأسه فى الحائط..

وحتى هذه صورة قديمة عفا عليها الزمن فالصورة المالية أسوأ وأضل سبيلاً إذ أنه من العسير جداً أن يتم قبول شكواك الآن من الأساس فإذا ما تقدمّت بشكوى لأية جهة يرفض الموظف تلقيها إلا بعد موافقة رئيسه الذى يرفض قبولها طبعاً لو أنها شكوى حقيقية.. وهكذا فقد الشرفاء حتى حق الشكوى وانسدت أمامهم كل السبل الطبيعية لنيل حقوقهم أو حتى لإبداء اعتراضهم فلم يعد أمامهم إلا حمل السلاح ومقاومة الحكومة بالنار والرصاص وقنابل المسامير وغضب الدنيا كله..

وكعادة الأمن والحكومة لم يحاول شخص واحد بحث السبب الفعلى للغضب الذى دفع فئة ما إلى العنف والشراسة واغترت الحكومة بأمنها واغتر الأمن بقوته وخرج يضرب ويعاقب ويلقى قنابل الغاز ويحاصر بقوات الأمن المركزى ويحمّر عينيه ويعتقل المعارضين والرافضين.. ومع كل هذا تضاعف الغضب فى القلوب والنفوس وتحوّلت موجات الغضب العلانية إلى جمعيات سرية وخطط اغتيالات ونسف وقتل العاطل مع الباطل والسعى لسحق كل من ينتمى إلى الحكومة وخاصة ضباط الشرطة وسياراتها ورجالها..

وكما يقولون لا يفلّ الحديد إلا الحديد والعنف يواجه العنف واضطرت قوات الأمن إلى عقد هدنة مع المقاتلين ومع الجناح العسكرى للجماعات الإسلامية ومؤيديها ولكن الغلّ بقى فى أعماقها وانتظرت اللحظة المناسبة لتعتقل كل معارضى الدولة وكل من ينتمى إلى أى نظام إسلامى فيما عدا الأزهر الحكومى بالطبع..

ووسط كل هذا وبينما الحكومة حائرة بين سحق خصومها فى الداخل والحفاظ على مظهرها الأنيق فى الخارج، اشتعلت الدنيا فجأة..

* * *

فى الحادى عشر من سبتمبر من أوائل القرن الحادى والعشرين واجهت الولايات المتحدة الأمريكية أعنف هجوم بعد (بيرل هاربور) وأوّل هجوم عنيف فى قلبها بعد أن خاضت عدة حروب خارج حدودها لم يشعر بها سوى جيشها.. ولأن ذلك الهجوم جاء فى عصر رئيس يمتلك نزعة ديكتاتورية وغلّ قديم الأزل من أيام جده ووالده تجاه العرب والمسلمين فقد وجدها فرصة لدخول التاريخ عبر نظام عنيف شرس لا فارق بينه وبين النظام النازى القديم الذى ما زالوا يصمونه بالعار حتى يومنا هذا..

ولأن ذلك الرئيس يقود أقوى دولة ويرقد فوق ترسانة سلاح رهيبة فقد استغل كل هذا مع ذعر الأمريكيين وانطلق يوجّه ضرباته هنا وهناك ويوزّع قواته فى شتى أنحاء العالم ليرتكب نفس ما ارتكبته الإمبراطورية الرومانية من قبل.. وفى يوم وليلة تحوّلت زعيمة العالم الجديد إلى بلطجية العالم والتاريخ وأكبر دولة استعمارية عرفناها..

Looloo
www.dvd4arab.com

ولأن حكومتنا وضعت نفسها فى جيب (أمريكا) منذ زمن طويل ولأنها أصبحت التابع الذليل لها والذى ينفذ أوامرها حرفياً دون أن يهش أو ينش فهى لم تعارض احتلال (أمريكا) لدولة (أفغانستان) ولا بلطجتها على (العراق) ولا سيطرتها على ثلث منابع البترول العربية على الرغم من أن الكل يعاملها بمنتهى التعالى والغطرسة ولا أحد يبالى حتى باستقبال أكبر شنب فيها استقبالاً رسمياً أو حتى ودياً عندما يذهب لزيارتهم..

ومع كل هذا خرج علينا الرئيس الأمريكى بمصطلح (الحرب ضد الإرهاب) وهى حرب مطاطة عجيبة لا بداية لها ولا نهاية فكل حرب لها هدف تنتهى مع بلوغه أما الحرب ضد الإرهاب فليس لها هدف واضح اللهم إلا سحق كل معارض ورافض للسياسة الأمريكية فى العالم كله وهذا ما يستحيل حدوثه مما يعنى أنها حرب ممتدة حتى آخر الزمان أو حتى القضاء على الولايات المتحدة الأمريكية نفسها !!

وكل هذا لا يعنى حكومتنا الرشيدة ولا نظام حكمنا فى شئ إلا فى أمر واحد لا غير أنه قد سن سنناً جديدة فيما يتعلّق بالأمن والحريات ونقل تلك السنن إلينا أو أننا ماصدقنا وطلعنا عالرابع !!!

* * *

فى شبابنا كانوا يرددون شعاراً طوال الوقت يقول: "لا صوت يعلو فوق صوت المعركة" واعتماداً عليه تم اعتقال وتعذيب العشرات وانتهاك كل الحريات وحقوق الإنسان والتنكيل بكل الخصوم والمعارضين بحجة ربح المعركة..

ثم تغيَّر الزمن وجاء من يطيح بكل من فعلوا هذا فرحنا

المعركة.. وها هو ذا التاريخ يعيد نفسه وها هو ذا رئيس أكبر دولة فى العالم يضع شعبه أمام خيار من اثنين الحرية أو الأمن.. ولأن للخوف سلطان يفوق النوم وافق الشعب الأمريكى (المذعور) على الصفقة ورضى بالتنازل عن الحريات التى ميَّزته وسط شعوب العالم فى سبيل شعور زائف بالأمن حرصت كل النظم الأمريكية على ألا يحظى به أبداً حتى يمنحها المزيد والمزيد من السلطات وحق التجاوزات ويظل يحلم بالأمن طوال الوقت..

لعبة قديمة كانت سبباً فى انهيار الاتحاد السوفيتى عندما أقنع شعبه بنظرية الأمن مقابل الحريات فلا حصلوا على الحريات ولا حظوا بالأمن لأن الحريات هى السبيل الوحيد للأمن كما يدرك أى شخص عاقل وكما لا تدرك أو تحب أية حكومة ديكتاتورية استبدادية فاسدة ظالمة أو أنها تدرك ولكن هذا لا يناسب سياستها وفسادها وما تكنزه من ثروات على حساب شعوبها وفقرائها ولا يحقّق لها السيطرة الاستبدادية المنشودة..

وموقف الحكومات لا يدهشنى فطبيعة الإنسان أنه ظلوم كفَّار أنانى الطبع يسعى لتحقيق كل ما يفيد ذاته وحدها ولو لم يتم قهره لما منح الناس حريتها وأمانها وحقوقها وحكامنا بشر تصيبهم السلطة المطلقة بكل مفاسدها فيفسقون فى الدنيا ويجدون حولهم ما يكفى من المنافقين الذين يؤكّدون لهم طوال الوقت أنهم ملائكة وسيذهبون إلى الجنة حدف وخن نتفق معهم فى موضوع الحدف هذا ونختلف معهم فى موضوع الجنة..

ولكن ما يدهش بحق هو موقف رجال الأمن والشرطة والقانون أنفسهم والذين دفنوا مشاعرهم وإنسانيتهم

Looloo
www.dvd4arab.com

وضمائرهم فى مقبرة الحكومة ونسوا تماماً أنهم جزء من هذا الشعب وتصوَّروا أنهم سادة وأكابر لهم الأمر وللشعب الطاعة وتعاملوا مع المجتمع من هذا المنطلق وراحوا يفسدون ويفسقون ويعذبون الناس والمجتمع بلا رحمة..

* * *

ترى هل تساءل رجال الشرطة يوماً عما إذا كانت مرتباتهم حلال أم حرام نسبة إلى مايقومون به من أعمال؟!..

لست أقصد هنا بالطبع الحفاظ على الأمن وخدمة المجتمع وحماية الأبرياء وتوفير الأمن والأمان للوطن لأنهم - ببساطة - لا يقومون بكل هذا !!! وإنما اقتصر عملهم فى الآونة الأخيرة على حماية النظام وسحق معارضيه واستئجار البلطجية وقطاع الطرق لترويع المخالفين واعتقال الرافضين وتكميم كل فم حر يرفض الفساد والاستبداد والقهر...

وأسوأ مافى الأمر هو أن رجال الشرطة يفعلون كل هذا من منطلقين لا ثالث لهما فإما أنهم يدركون خطأ مايفعلون ويضطرون لفعله حفاظاً على لقمة العيش (الحرام) ويكتمون ضمائرهم وعقولهم ويتعلمون الطاعة ولو فى معصية الخالق أو أنهم مقتنعون فعلاً بأنهم يقومون بعمل عظيم عندما يصفعون ويضربون ويعذبون الناس من أجل بقاء نظام يتمادى فى كل يوم بهم وعبرهم فى استبداده وطغيانه وسحقه لكل لمحة ديمقراطية أو حرية تارة باسم الحفاظ على الأمن الداخلى وتارة أخرى باسم مكافحة الإرهاب وثالثة بحجة القضاء على التطرّف...

ومع حالة غسيل المخ التى يعيشها النصف الثانى منهم أصبح من غير المجدى حتى أن تناقشه أو تسعى لتبصيره

بما يتوغّل فيه من غى وظلم أو أن تقنعه بأنه من عاون ظالماً سلطه الله عليه وجعله يقتص منه إن عاجلاً أم آجلاً لأنه مجرد الحديث عن الثواب والعقاب مع رجال الأمن يجعلهم يصنفونك باعتبارك من التيار الإسلامى ويعتبرون هذا تهمة بشعة تستوجب إضافة اسمك إلى السجلات والملفات الأمنية وكأننا فى قريش الذين أرعبهم ظهور النبى صلى الله عليه وسلّم فراحوا يعذبون كل من يؤمن برسالته، حتى يعود عنها !!!

ورجال الأمن فى هذا العصر لا يدركون أنه لا فارق بينهم وبين كفار قريش فى تلك الفترة فكلاهما عذّب من اختلف معه فى الفكر والعقيدة وكلاهما حارب التيار الإسلامى من منظور واحد مع اختلاف الزمن والرؤية...

الفارق الوحيد هو حالة ازدواج الشخصية العجيبة فى رجال الأمن الذين يصلون ويصومون ويقرأون القرآن ثم يضربون ويعذبون ويعتقلون فى الوقت ذاته ... ولنا ربنا..

* * *

مشكلة الأمن فى مصر هى انه إما منعدم الشخصية ينفذ أوامر النظام حتى ولو كان ظالماً مستبداً أو أنه مغسول الدماغ مقتنع بحتمية بقاء النظام واستمرار طغيانه وغبه وتكميمه للأفواه وسحقه للمعارضة حتى تبقى له هو سطوته ونفوذه وجاوزاته... والنفس البشرية بطبيعتها أمّارة بالسوء وأنانية وتسعى لتحقيق ذاتها وحدها ومصالحها المنفردة مالم يكن هناك نظام قهرى يجبرها على العكس ويقهر نزعاتها الفردية لبضعها فى إطار جماعى يحقّق مصالح الكافة ولكن من يمكن أن يدفع الأمن إلى النظام الجماعى وقد انفرد بنظام ديكتاتورى لا يقبل بالرأى الآخر لا لرسم صورة

www.dvd4arab.com

أنيفة أمام المجتمع الدولي دون أن يبالى بشعبه الذى هو فى رأيه شعب من العبيد يحيط به لخدمته فحسب...

وفى المرحلة الحالية بالذات وفى ظل بلطجة مكافحة الإرهاب التى ابتدعتها أمريكا وسارت على نهجها كل الدول العربية التى تتبعها صاغرة صار من المألوف أن تخرج قوانين جديدة باسم مكافحة الإرهاب تستبيح كل غال وعزيز بدءاً من الحريات ووصولاً الى الآدمية نفسها بحجة حماية الأمن وتوفير الأمان...

والأيام القادمة ستثبت للناس أنه فى غياب الحريات والضمانات لا أمن ولا أمان ومن المستحيل أن يتواجد أمن وأمان لأن منفذى القانون ليسوا ملائكة وليس لديهم أدنى قدر من جهاد النفس ولأن السلطة المطلقة مفسدة مطلقة والنظام كان فاسداً متجبراً فى ظل الحريات فكيف سيكون بعد حذفها؟!...

لو فكرنا سنجد أنفسنا أمام صورة قاتمة سوداء لا تبشر بالخير ولو على المدى البعيد بل توحى بأننا سنشهد أياماً سوداء مظلمة وأننا نغوص فى عهود ظلام تصوّرنا أنه قد انتهت بلا عودة منذ زمن طويل.. ولقد لجأت الحكومة ولجأ النظام لهذا بعد أن أرهقه التظاهر بالحرية وملّ لعبة الديمقراطية وكتم أنفاسه بقناع الطيبة الزائف فقرّر أن ينزعه ويبدي وجهه الحقيقى القبيح وليكن مايكون...

وهذه ظاهرة جيدة فى الواقع فكما اعتدنا من التاريخ تكون دوماً هذه هى بداية السقوط وأوّل خيط فى انقلابة الأحداث التى تأتى دوماً فجأة ودون أن يتوقعها أحد..

* * *

الحديث عن الأمن لابد وأن يقودنا إلى رد الفعل فى الشارع وإلى مالا ندرى إذا ماكان السبب أم النتيجة. فيما وصلنا إليه. ولكن الناس كلها غاضبة. مكتئبة. ساخطة. تشعر بالنقمة على النظام ولكنها تعجز عن إسقاطه فتفجّر هذه النقمة فى بعضها البعض... سِر فى الشارع وانظر إلى المارة ولن تجد واحداً منهم يبتسم أو حتى يسير عادياً بل كلهم متوترين مشدودين منفجرين...

وكل هذا أفرغوه فى جعبة الدين فلو ناقشت أحدهم فى تعنت دينى يقوم به، فوجئت به يهاجمك متسائلاً عما تفعله الحكومة ولو طلبت منه الحفاظ على ملكية عامة أخبرك كيف تسرق الحكومة وترتشى وهذا خلط عجيب بين الدين والسياسة. فلا أحد ستغفر له ذنوبه لمجرد أن من حوله فاسدون ولا أحد سيلغى حسابه، لأن غيره أخطأ!!...

ماتعلمناه هو أن من عمل مثقال ذرة خيراً يره ومن عمل مثقال ذرة شراً يره. ولا ينبغى أن نزر وازرة وزر أخرى. ولكنه الغضب والمرار والقهر الذى خلط الأمور كلها ببعضها البعض. فلم يعد أحد يدرى أين السياسة وأين الدين وأين الصواب وأين الخطأ واختلّت كل الموازين والمعايير حتى وجدنا الناس فى غاية التزمت وغاية الفساد وغاية التدين وغاية الإهمال والتقصير معاً !!

تناقض عجيب لا يمكنك أن تجده إلا فى شعب كشعبنا يأس من أن تعدل حكومته أو ينصلح نظامه فلجأ للدين كوسيلة لإفراغ كل انفعالاته وصرنا نسمع فتوى جديدة كل يوم تزيد الحياة تعقيداً وكأن الحياة بقصها التعقيد أو كأنهم اكتشفوا الدين فجأة بعد أربعة عشر قرنا من الزمان وكأنهم

Looloo
www.dvd4arab.com

أدركوا دون مقدمات أن الجهاد هو القتل والتدمير والنسف والتفخيخ ليل نهار!!! ومن يضحون بأنفسهم للقيام بعمليات تفجير ذاتية على عينى وراسى ولكن ألم يخطر ببالهم أن من قتل نفساً بغير ذنب فقد قتل الناس جميعاً أم أن هناك من يفتيهم بأن ضحايا الانفجار فى مرتبة الشهداء ولو أنهم كذلك، فهل يدخل قاتل الشهداء الجنة؟!... سؤال يحتاج إلى فتوى ..

* * *

أنا مواطن مصرى مسلم بسيط، يمكننى أن أفهم وأستوعب، وأقدّر أيضاً، حالة الغضب والغليان، والثورة، والسخط على كل الأوضاع المتردية فى مصر، بدءاً من الفساد الإدارى، ووصولاً إلى الفساد السياسى، على كل المستويات، بل ويمكننى أيضاً أن أستوعب، لماذا يحوّل البعض هذا الغضب والسخط إلى طاقة مدمّرة، تهدّد وتوعّد، وتنسف المنشئات، وتروّع الآمنين، وتقتل الأبرياء، لأنهم لم يجدوا وسيلة أخرى للاعتراض، بعد أن كمّمت الدولة كل الأفواه، وهدمت كل جسور التفاهم....

كل هذا يمكننى أن أفهمه وأستوعبه، حتى وإن لم أتفق معه، ولكن الشئ الوحيد الذى أرفضه، من كل هذا، هو أن ننسب ذلك العنف إلى الدين!... أى دين هذا، الذى لا يرى من الجهاد سوى العنف والقتل والتدمير؟!...

أى دين منزّل من الخالق عزّ وجلّ، يدعو المؤمن إلى الشراسة، والقسوة، واستباحة الدماء، لمجرّد أنه يختلف مع الآخرين فى الفكر، أو العقيدة، أو الرؤية؟!...

ثم لماذا كان الجهاد الأكبر هو جهاد النفس؟!... ألأنها أمّارة

بالسوء، تفيض بالغل والغضب والكراهية، وترغب فى إفراغ كل هذا، فلا تجد أمامها إلا أن تنسب إفراغها إلى دين، يدعو دوماً للسماحة والكرم، ويحضنا على الدعوة إليه بالحكمة، والموعظة الحسنة، ويؤكّد لنا أن رسولنا الكريم، صلى اللّه عليه وسلّم، الذى لنا فيه أسوة حسنة، لو كان فظاً غليظ القلب، لانفضّ الناس من حوله، ولما التفوا حوله لأجيال وأجيال!!....

ألم يقرأ واحد من الذين يفتون بالقتل والتدمير تاريخ الإسلام؛ ليرى كيف انتشر، حتى فى البلدان التى تم فتحها، فى أزهى عصوره؟!... ألم يتعلم كيف أنه لم يحاول إجبار مخلوق واحد على الإيمان، ولكن الناس رأوا فى المسلمين السماحة، والكرم، والتهذيب، فانبهروا بهم، وبدينهم، ودخلوه أفواجاً؟!...

الإسلام انتشر إذن؛ لأن المسلمين لم يكونوا كغيرهم، من أهل زمانهم... لم يكونوا قتلة، سفاحين، ومريقى دماء... وكمسلم بسيط دعنى أتساءل: لو أن الإسلام يدعو إلى النسف، والتفخيخ، وترويع الآمنين، وقتل الأبرياء دون ذنب جنوه، فما الذى تدعو إليه باللّه عليك عبادة الشيطان؟!...

* * *

غاضبون دوماً، ولأن الحكومات المتعاقبة منشغلة دائماً بمصالحها الشخصية، وتنسى مصلحة الأمة، ولأننا جعلنا الحياة قطعة من الجحيم، متصورين أن هذا هو قمة التديّن، فقد انسحبنا من دولة كانت منارة للعلم والحضارة والتطوّر، إلى دولة باهتة، فى آخر سلم المدنية، وقاع التدهور!! والسمة الغالبة علينا هى البطء المستفز، فى زمن يتسارع كل شئ فيه، لينطلق بسرعة الصاروخ..

ولأننا سلحفائيين، فى عصر الصواريخ، أصبحنا أعداء

Looloo
www.dvd4arab.com

كل تطوّر، وخصوم كل تقدّم. فكل علم خضعه للأقاويل، والفتاوى، والقيل والقال، وقبل أن ننتهى من اللت والعجن فيه، ومن إثبات حلاله من حرامه، يكون قد أصبح علماً قديماً، لافائدة منه، ويكون الآخرون قد سبقونا بدهور من التطوّر... ولست أدرى كيف يكون العلم حلالاً أم حراماً. فالعلم سمة دعينا إلى طلبها، ولو فى الصين، ودعينا أيضاً إلى إعداد مانستطيع من قوة، وهذا لا يتاح إلا بالعلم، الذى نحاربه فى شراسة، وكأن ديننا يدعونا إلى الجهل!..

المشكلة تكمن دوماً فى استخدامات العلم، وليس فى العلم نفسه، فالطاقة يمكن أن تولّد كهرباء، تنير المدن والمنازل والعقول، ويمكن أيضاً أن تصنع قنابل، تقتل الأبرياء والشيوخ والأطفال، ولا يمكننى أن أمنع اختراع أو استخدام مولدات الطاقة، فقط لأنها يمكن أن تقتل... المشكلة إذن تكمن فيمن وراء العلم، وليس فى العلم نفسه...

والناس دوماً أعداء مايجهلون، ويبغضون مالا يفهمون، ويخشون مالايرون، وهذا أمر طبيعى، فى النفس البشرية، التى تقاوم دوماً كل جديد، حتى تعتاد عليه، ولكن غير الطبيعى، أن ينسب البعض معاداة العلم إلى الدين، ويرفضون المخترعات والمكتشفات الحديثة باسمه، وتحت ستاره، ثم نجدهم فى الوقت ذاته، يستخدمون أسلحة وقنابل ومتفجرات، كلها من صنع العلم، ويأكلون فى أطباق من مواد صناعية، ويجلسون تحت أضواء كهربية ابتكرها العلم، بل ويخططون على حواسيب هى انجاز علمى، ومع كل هذا، يسبون العلم ليل نهار، ويعتبرون بعضه كفراً، لمجرّد أنهم لا يفهمونه، أو يعجزون عن اختراع مثله...

ومرة أخرى هو الغضب، والنقمة، والسخط .. فقط..

* * *

النغمة السائدة، على كل الألسن، فى السنوات العشر الأخيرة، هى عبارة (الغرب الكافر)، والذين يرددونها افترضوا أنهم فى قمة الإيمان، وأن الغرب فى قمة الكفر، والأسوأ أنهم افترضوا أن هذا هو الدين الصحيح، وأن تكفير الآخرين إثبات لإيماننا، أو تعبير عن غضبنا من تخلفنا، ومن تقدّم الغرب، الذى عجزنا عن اللحاق به، فأوهمنا أنفسنا أنه غرب كافر ملحد زنديق، وهكذا تهدأ نفوسنا، ويفرغ غضبنا، ونصبح بقذفة لسان (فقط)، أفضل من كل تطوّر الغرب...

ولست أدرى ما إذا كنا بهذا نضحك على الغرب، أم على الدنيا، أم على أنفسنا، ولماذا نلجأ إلى مخدرات وهمية، نحاول أن نلبسها ثوب الدين، بدلاً من أن نعمل، حتى يرى عملنا رسوله والمؤمنين، ولماذا لا نسعى لأن ندرس سر تقدّم الغرب، الذى وجد فيه الإمام محمد عبده إسلاماً بلا مسلمين، ونأخذ منهم كل مايفيد، ونترك كل مايضر، بدلاً من الرفض على العاطل والباطل، والغضب من الفاضية والمليانة؟؟!!..

لماذا نصر دوماً على السلبية، وليس الإيجابية، ولماذا نلبس سلبيتنا ثوب الدين، وهو من أفعالنا برئ؟!..

الموظف الذى يرغب فى الزوغان من عمله، ينتظر أذان الصلاة، ليضيّع ساعة كاملة، بحجة التدين، فى حين أن الصلاة نفسها، لا تستغرق منه عشر دقائق، فى أيام إجازته. فماذا تسمى هذا؟!... إنه ليس الدين، الذى يحض على العمل حتماً، ولكنها الفهلوة، والتكاسل، فى ثوب دينى، تنسى صاحبه أن الأعمال بالنيات، ولكل أمرئ مانوى، وأنه لو كان يطيل فى

Looloo
www.dvd4arab.com

الصلاة عمداً، ليستهلك وقت العمل، الذى يتقاضى أجره عليه، بغض النظر عن قيمة هذا الأجر،والتى ارتضاها بقبوله إياه، فلن يثاب على إطالته، بل وربما يجازى بها شراً، لأنه أضاع متعمداً مصالح الناس، وأساء إلى المريض والعاجز وذى الحاجة...

ولكن من يفكر، ومن يعقل، ومن يتعامل مع الدين من منطلقه الأسمى، وهو بلوغ راحة وصلاح الفرد والمجتمع؟!... المشكلة ليست مشكلة دين أيها السادة، ولا هى مشكلة تطرّف أو تعنت... أو حتى تخاذل...

إنها مشكلة غضب، يغلى فى كل النفوس...

* * *

نحن دولة غضب... الكل فيها غاضب، ساخط.. ناقم على كل الأوضاع، وهذا أمر طبيعى، مع الفساد المنتشر فى كل مكان، والرشوة التى أصبحت ظاهرة اعتدناها، والمحسوبية فى كل المهن والوظائف والأعمال، ولكن غير الطبيعى، أن نعكس كل هذا على الدين، الذى يدعونا إلى كظم الغيظ، ومقابلة السيئة بالحسنة، لنمحوها...

ولو أنك سرت فى مصر، فسترى الغضب على كل الوجوه، وفى كل التصرفات، وكل ردود الأفعال، وذلك الغضب يجعل روح الكل فى مناخيره، فلا أحد يحتمل ولو لمحة من الاحتمال، على الرغم من أن حياتنا كلها متاعب ومصاعب...

لا أحد يبتسم فى وجه أخيه، على الرغم من أن هذا صدقة، ولا أحد يتجاوز عن أخطاء الآخرين، على الرغم من أن الكل يرتكب عشرات الأخطاء... فماذا أصاب مصر والمصريين؟!... وماذا غيّر طبائعنا وسماتنا وصفاتنا؟!...

إنه اليأس... اليأس من أن تنصلح الأحوال، أويسود

العدل، أو يأخذ كل ذى حق حقه، على أى مستوى، من القمة إلى القاع... ففى بوتقة الفساد، لا يمكن أن يولد الخير، أو يكون هناك أمل فى الإصلاح، الذى يتحدّث عنه النظام ليل نهار، ثم لا يعمل به لحظة واحدة...

بل على العكس تماماً، فالنظام يعدّل القوانين، والدستور نفسه، ليحكم قبضته على كل شئ، وليكمّم كل الأفواه، ويكتم كل معارضه، بحيث لا يعود هناك من يتحدّث سوى بلسانه وحده، على الرغم من حديثه طوال الوقت، عن ديمقراطية زاهية، وحريات مبهرة، ورخاء بلا حدود...

المشكلة، التى لا يشعر بها، ولا يقدّرها النظام، هى أن حديثه هذا يثير فى النفوس غضب أكثر وأكثر، ويدفع مزيداً من الحنق والسخط فى النفوس، فيغلى المجتمع كله، ويزداد الضغط داخله، مثل حلة بخار هائلة، تغلى وتغلى وتغلى، ولا تجد أى متنفس ومفرغ لغليانها، فتكون النتيجة الحتمية هى الانفجار، ويكون الانفجار عالياً، مدوياً، هادراً، يصم آذان الدنيا كلها، ويصب فى قلب النظام نفسه، كنتيجة حتمية لعدم وجود ولو ثقب واحد لتفريغ الضغط الزائد...

وهنا نطرح السؤال الأهم ..الأخطر...

هل يمكن أن تقوم فى مصر ثورة؟!...

لو طرحنا السؤال على فئات مختلفة، فى وقتنا هذا، فسنحصل على أجوبة مختلفة، بل ومتباينة أيضاً، على نحو مدهش، فرجال الأمن طبعاً سيرفضون الفكرة، ويستنكرونها، وربما يغضبون من مجرّد الإشارة إليها، باعتبار أن هذا تشكيك فى قدرتهم، وتخطيطهم، وإحكام سيطرتهم على الشارع المصرى، وأعضاء الحزب الوطنى والحكومة ستفزعهم الفكرة،

looloo
www.dvd4arab.com

وتطيّر النوم من عيونهم. فقيام ثورة يعنى ضياع امتيازاتهم، واستثناءاتهم، وبلطجتهم على القانون، وربما يعنى تحوّلهم إلى فئات منبوذة، مطاردة، مطلوبة، تختبئ فى الخرابات والأطلال، باعتبارهم من مفسدى الحياة السياسية والاجتماعية، ومدمرى الاقتصاد، فى هذا العصر، أما النظام الحاكم، فسيسخر من الفكرة كلها، وسيرى أنه نظام محبوب معشوق، وأنه من المستحيل أن يثور عليه أحد؛ لأنه بابا وماما، والدنيا كلها...

أما فى قلب الشارع نفسه، فالكل سيتمنى لو تقوم الثورة بحق وحقيق، وليس بافتراض خيالى؛ لعلها تعدل الأوضاع، وتقضى على الرشوة والفساد والمحسوبية، وتأتى بنظام جديد، يحترم الحريات، وكرامة المواطن، ويسعى إلى إصلاح حقيقى، وتطهير فعلى...

وقيام ثورة ليس بالأمر المستبعد، على الرغم من ثقة النظام فى أنه يحكم قبضته على كل شئ، ويسيطر على كل الأمور، فكما يقولون، معظم النار من مستصغر الشرر، ومامن ثورة اندلعت، من أقاصى الأرض إلى أقاصيها، إلا وكانت مفاجئة، وبالذات بالنسبة لمن تسببوا فى اندلاعها، والذين اطمأنوا إلى استحالة قيامها...

ولكن من يدرى فالثورات تندلع دوماً مع متغيّر مفاجئ، غير محسوب وقد يأتى هذا المتغيّر فى شكل حدث سياسى أو نكسة عسكرية أو حتى كارثة طبيعية وقد يبدأ بتعنت أمنى وغضب شعبى وتتطوّر الأمور بسرعة فتتجاوز كل الحدود..

أجهزة الأمن طبعاً ستؤكّد أن كل هذا مجرّد هذيان، وخيالات، وأمر يستحيل حدوثه فى عالم الواقع، ولكنها، على الرغم من هذا، ستتخذ احتياطاتها، وستتأهّب لمواجهة ثورة

محتملة، وربما تعتقل بضع عشرات من المعارضين الفعليين، و حتى المحتملين، وتلقيهم فى السجون، تفادياً لما يمكن أن يحدث...

وربما تكون هذه هى الشرارة، التى تشعل الثورة... ربما..

* * *

الواقع أننا فى مصر، نحتاج إلى ثورة... ثورة على الأوضاع السيئة، والفساد الذى يزكم أنوف الأبرياء ويستنزف خيرات البلاد، بلا رحمة، ويزيد الفقراء فقراً، والأثرياء ثراءً، بلا حدود، ويفتح باب الاستثناءات بلا حدود، أمام الأقارب والنسائب، وأصحاب الحظوة..... ولكن من يقوم بتلك الثورة، ومن يضمن أن يأتى من يصلح، لا من يزيد الطين بلة، والأوضاع سوءاً؟!..

ومن يضمن ألا تتحوّل الثورة إلى أنهار من الدم، وشلال من ديكتاتورية طاغية، باسم الدين أو التقدّم، أو حتى الأمن؟!...

الواقع أنه لا أحد يمكنه أن يضمن أى شئ، لو قامت ثورة فى مصر، فى وضعنا الحالى هذا، وفى ظل التطرّف والتعنت والإهمال، ولا أحد يمكن أن يتنبأ بنتائجها، أو تداعياتها، ولا بمستقبل مصر فى ظلها... وعلى الرغم من هذا، فالناس تتحدّث عنها، وتناقشها، ولن نكون مبالغين، لو قلنا أنها تأملها؛ ربما لأنها يئست من نظام الحكم الحالى، ومن إمكانية قهره للفساد، أو محاربته للرشوة، أو الإصلاح فى ظله، فراحت تتعشّم فى نظام مختلف، وفى وجوه حكم جديدة، مهما كانت هذه الوجوه، ومهما كانت نتائج النظام المختلف...

والنظام يدرك هذا حتماً، وإلا ماكان ليتعامل بكل هذه الشراسة، مع مخالفيه ومعارضيه، ولما سعى لتكميم الأفواه، بتغيير الدستور والقانون، وتعديل المحاكم والنظم، وإطلاق يد الأمن فى البلد بلا حدود، أو حتى معايير للحريات...

Looloo
www.dvd4arab.com

النظام يدرك بلا شك أن الناس فى الشارع تحلم بالثورة، لذا فهو يضع أمامهم بدائل مخيفة، ليثنيهم عنها، ويروّج لأفكار مضحكة، يريد بها اقناع العامة، بأن وجوده أحسن من غيره، على الرغم من كل عيوبه، وأنه، مع فساده وغدره، وخنوعه للقوى الأجنبية وتحكماتها، وإضاعته لمكانة مصر، نظام متوازن مستقر، لا بديل عنه، إلا الجمود والتحجّر والتطرّف ومحدودية التفكير، ولا محدودية التكفير!!...

والشعب يدرك ماتفعله الحكومة، وينفذ سياستها الرشيدة (ودن من طين، وودن من عجين)، فيستمع إلى جعجعتها من أذن، ويلقيها من الثانية، فى أوّل مقلب زباله يجده، ثم يعود إلى حلمه الواهم.... حلم الثورة..

* * *

من أسوأ مافعلته الثورة فى مصر، هو أنها حوّلت كل شئ فيها إلى أداة حكومية، وحذفت من كل الأذهان والعقول، فكرة الصواب والخطأ، وغرست بدلاً منها، فكرة الرضا والغضب، فلم يعد من المهم أن يفعل المرء الصالح أو الطالح، ولكن المهم أن يرضى عنه أولو الأمر، وحتى يكتسب هذا الفكر الجديد مصداقيته، زجّت الحكومات المتعاقبة الدين فى اللعبة، وأوهمت الناس بحتمية طاعتها، باعتبار أن اللّه (سبحانه وتعالى)، أمرنا بطاعته، ورسوله، وأولى الأمر (منا)، وفى الكلمة الأخيرة تكمن اللعبة كلها، فالقاعدة الأهم، والأكثر خطورة، هى أنه لا طاعة لمخلوق، فى معصية الخالق (عزّ وجلّ)، مما يحتم عدم طاعة كل من هب ودب، إلا إذا كان منا، يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، وينشر الصدق والأمانة والشرف والدين بين الناس...

تعالوا نطبّق هذا إذن على حكام العصر الحالى، الذى تردّت فيه الأوضاع، كما لم نرى من قبل، وانتشر فيه الفساد، حتى بدا كسمة أساسية للحكم المبارك، لا يمكننا أن نتحدّث عن أحدهما، دون أن يجرنا الحديث – شئنا أم أبينا – إلى الآخر، وتلازما، حتى فى ذهن المواطن البسيط...

ولأن الحال هكذا، والفساد يزكم الأنوف، والحكومة لا تستحى، وتفعل ماتشاء، من منطلق البلطجة السياسية، والديكتاتورية الحزبية، شعر الشعب أن هذا البلد لم يعد له ... لم يعد بلده، أو أرضه، أو وطنه...

ولهذا ضعف الانتماء، وغاب عن الأذهان، والعقول، والقلوب...

ولهذا أيضاً كثرت قضايا التجسّس، فى الآونة الأخيرة، وتلاحقت حتى أصبحت تتداخل مع بعضها البعض، وتتسم فى معظمها بسمة عجيبة، لم تكن لتخطر ببال أحد، منذ ربع القرن.. وهي التوجّه إلى السفارة الإسرائيلية واللجوء إليها !!

شريف الفلالى، ووليد هاشم، ومحمد العطار، وسيد صابر.... كلهم شباب متعلّم، جامعى، من أسرة كريمة، والمال ليس ضرورة حتمية له.... فلماذا سقطوا فى مستنقع الجاسوسية، ولماذا خانوا وطنهم، وباعوا أسراره؟!...

الجواب هو أن أياً منهم لم يشعر بانتماء حقيقى لهذا الوطن، ولا يحب لترابه، ولم يعشق نيله، كما تقول الأغنيات الوطنية...

* * *

"ماتقولش إيه إدتنا مصر.. قول حندى إيه لمصر"...

فى هذه العبارة تكمن القضية كلها، فمن كثرة ماردّدناها، صدقناها، ورحنا نقولها فى آلية، وكأننا كلنا أصبحنا ملائكة، ليست لنا طلبات أو احتياجات، ونحيا فقط لخدمة مصر، وعلى

Loolod
www.dvd4arab.com

حكوماتها المتعاقبة أن تضربنا بالجزمة القديمة، فنأخذ منه الجزمة، ونضعها فى أفواهنا، وننكتم، لأن دى مصر ياعبلة...

أى منطق مضحك هذا؟؟؟!!!...

اللّه (سبحانه وتعالى)، عندما أمرنا أن نعبده، لم يطلب منا هذا مجاناً، على الرغم من أنه خالقنا، ورازقنا، والمنعم علينا بكل النعم، وإنما وعدنا، فى مقابل هذا بنعيم أبدى، وجنات تجرى من تحتها أنهار من عسل وخمر، ونعيم فى الدنيا...

كل شئ إذن له مقابل، ولكن حكامنا يتصوّرون أن المقابل الوحيد، هو رضاهم السامى عنا، وتربيتتهم على رؤسنا، التى ننام بعدها عاريين، جائعين، ممتنين، لأنهم شبعوا وتغطوا... باللمهزلة!... إنك لو ربيت كلباً فى منزلك، وتركته بلا عناية أو طعام، فسيذهب ليأكل فى بيت جارك، ولا تصدّق ذلك المثل الأهبل، الذى يقول "جوّع كلبك يتبعك". فلا يمكن أن يصلح هذا المثل، إلا لو كنت مصدر الطعام الوحيد، فى صحراء قاحلة مثلاً، والكلب لن يجد طعاماً عند غيرك، أما لو أنه هناك منافس واحد فسيتركك الكلب، لأن نداء البطون أقوى من نداء العقول...

والشعب هنا كله جائع... جائع للطموح، والراحة، والأمان....

الرشوة والفساد والمحسوبية أفسدوا كل شئ، وحرموا مصر من كل كفاءة، وكل طموح، وولّدوا فى نفوس الشباب نقمة مابعدها نقمة، على المترفين، الفاسقين، الذين يستولون على كل خيرات البلد، ويأخذون من الفقراء، حتى الفتات نفسه، باعتبار أن الحال سايب، فليه لأ؟!....

ولهذا يتجه الشباب إلى السفارة الإسرائيلية، لطلب العمل، والدراسة، والهجرة أيضاً....

وبدلاً من أن تدرس الحكومة الأسباب والدوافع، وتبحث عن وسائل رفع الانتماء، تتعامل مع الأمر كعادتها، من منظور أمنى بحت، فترهب كل من يدخل السفارة الإسرائيلية، وتطارده، وتحذره من دخولها فى مصر، فيسافر ليدخلها فى الخارج، ويعود إلينا بفكر مخابراتى تجسسى، وبغضب عدوانى أشد...

* * *

من أهم سمات اللّه (سبحانه وتعالى)، أنه رحمن رحيم؛ بدليل أننا نبدأ كل سورة بسم اللّه الرحمن الرحيم، وليس المنتقم الجبار، أو شديد العقاب، لأن الأساس هو الرحمة، ولكن الفكر الجديد، الذى تشرّب بطغيان حكام من البشر، لم يعد يرى هذه الرحمة، ولم يعد الدين فى نظر أصحابه، سوى الغضب والتهديد، والوعيد، والويل والثبور، وعظائم الأمور، حتى انعكست الآية، وأصبح الذين آمنوا هم الذين يحيون فى رعب، ولا يطمئن قلبهم بالإيمان؛ نظراً لأن من يوعظونهم يعتمدون نفس السياسة، التى تتبعها الدولة، فى نشر أفكارها... سياسة الترهيب، والقهر، وإثارة الرعب، ومن أجل هذا راحوا يهددون الناس ويذكرونهم بالجحيم والعذاب ليل نهار، حتى كادوا ينسوت مافى الدين، من مودة ورحمة، وسكينة وهدوء...

وهذه السياسة لها آثار جانبية خطيرة للغاية؛ إذ أنها تصل بالشخص العادى إلى اعتقاد يائس، بأنه لا أمل فى النجاة، مهما فعل وقال وعمل؛ مما قد يدفعه فى النهاية إلى إلقاء الحمل عن ظهره، والنفور من الدين كله، مادام شديد التعقيد إلى هذا الحد...

وأصحاب نظرية القهر والتهديد والوعيد سيستنكرون هذا حتماً لأنهم يؤمنون بأنهم على حق، وأنهم سيجذبون الناس

www.dvd4arab.com

للدين (بالجزمة القديمة)، وسيجبرونهم على الإيمان والالتزام، على الرغم من أنه لا إكراه فى الدين، ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، ولكن من يفكّر ومن يعى، ففى ذلك آيات لأولى الألباب، دون غيرهم...

وتداعيات التزمت أخطر مما يتصوّر أصحابه، وربما تتمثل فى شباب تركوا الدين، وكفاءات سعت للفرار من النظام كله، وآخرين عادوا لدياناتهم بعد إسلامهم، ووجدوا الوعّظ أفظاظاً فانفضوا من حولهم، ولجئوا إلى عدوهم، وربما إلى خيانة أوطانهم أيضاً...

إذن فسياسة القهر والترهيب تفشل، حتى مع العقائد، فمابالك بالسياسة، التى أصبحت تعتمد تماماً على الأمن، ورجال الأمن، وأمن الدولة، والأمن المركزى، ولا يعنيها الفكر، والعقل، وتتجاهل كل أخلاقيات الدنيا بالطبع..

وعلى الرغم من أن الأمن، بفئاته المختلفة، يستهلك الجزء الأعظم من ميزانية الدولة، إلا أن الناس كلها تفتقر للأمن..

وهذه رواية أخرى..

* * *

سؤال هام جداً بعد كل ماسبق : هل يمكن إصلاح هذا الحال المتردى فى مصر؟! ....

والسؤال الذى يلى هذا حتماً، هو: كيف؟! .. ومن أين نبدأ بالضبط؟!.. فالأحوال متردية فى كل المجالات، وكل الشعب، من الأمن، إلى الميكروباصات وفوضتها، إلى رجل الشارع نفسه، الذى أدرك أنه لا أمل فى الإصلاح، فقرّر أن يشارك الحكومة فسادها، وأن يلقى كل المبادئ والأخلاقيات، وحتى الشهامة والكرامة خلف ظهره، وينضم إلى منظومة الفساد، ورزقه على

الشيطان؛ لأن الله (سبحانه وتعالى) لا يشمل الفاسقين برحمته...

فلو افترضنا أنه هناك من يرغب فى إصلاح حقيقى، ومن لا يحيط نفسه بشلة فاسقين، فاسدين، منتفعين، منافقين (وهذا أشبه بالخيال العلمى)، فكيف يمكن له أن يبدأ مسيرة الإصلاح؟!...

المهمة لن تكون هيّنة أبداً؛ لأن منتفعى الفساد سيحاربونه بشدة، وسيسعون بكل قوتهم، لجذبه إلى مستنقعهم، بكل الإغراءات الممكنة، حتى يتلوّث مثلهم، وتنكسر عينه، فلا يفتحها فى وجوههم، ولا يملك منع فسادهم، الذى أصبح جزءاً منه، ولكن دعونا نفترض أنه قد تجاوز هذا، ونجح فى المواجهة، واستقر به المقام على عرش السلطة، وأصبح الحاكم بأمره، وأنه، مع كل هذا، مازال يرغب فى إصلاح حقيقى، فمن أين يبدأ العملية؟!...

الواقع أن البداية لابد وأن تكون فى دستور جديد، وحقيقى، يمنح الناس حريات فعلية، غير قابلة للإلغاء أو التعديل، وبنص إلزامى، لا يمكن أن يلغيه أى حاكم مستقبلاً، مهما كانت نفسه أمّارة بالسوء، ولضمان هذا، لابد من إطلاق القضاء حراً، قوياً، لا سلطة للحاكم أو الدولة عليه، وتكون له حقوق إشرافية كاملة، وحقيقية، على أي انتخابات، بدءاً من العمد والمشايخ، حتى رئيس الجمهورية، الذى يحتم عليه الدستور البقاء فى السلطة لفترة محدودة، غير قابلة للتجديد...

وحتى تنصلح المنظومة، لابد من جهاز رقابى قوى، على الشرطة والجهات الأمنية الأخرى، وقانون شديد رادع، يمنع رجل الأمن من تجاوز حدود وظيفته، وحدود القانون، وإلا يتم عزله

Looloo
www.dvd4arab.com

وتتم محاكمته، باعتبار أن فاقد الشئ لا يعطيه، ومخالف القانون لا يمكن أن يحميه... مطلقاً..

* * *

أوّل خطوة فى أى إصلاح محتمل، لابد وأن تكون القضاء والقانون، ثم الشرطة والأمن، وبعدها لن يصعب السير فى خطة إصلاح فعلية، حقيقية، ليس الغرض منها تلميع إعلامى برّاق، دون نتائج فعلية...

ثم يأتى بعد هذا دور إصلاح العلاقة، بين المواطن والحكومة، عبر برنامج اكتساب ثقة، على كل المحاور...

فى البداية، لابد وأن تبدى الدولة حسن النوايا، برد كرامة المواطن إليه، بعد أن سلبتها منه لعقود عديدة، فتعامله فى المطارات والموانئ والأماكن الأثرية، باعتباره مواطناً من الدرجة الأولى، وصاحب كل الحقوق، ودافع الضرائب، التى يحيا منه كل حكومى، من أصغر موظف، وحتى رئيس الجمهورية نفسه (مالم يقبض راتبه من جهة أجنبية)...

ولابد من اعتبار إهدار كرامة المواطن أو حقوقه جريمة عظمى، تتساوى مع الخيانة، ولابد من إدانة مرتكبها بأقصى العقوبات، ومنع المساس بالمواطن، إلا بالقانون، وهذا يمنع طبعاً اعتقاله، وحبسه، ومصادرة أمواله، إلا بحكم قضائى، من قضاء مستقل، لا تملك الحكومة عزله أو نقله، ولا سلطة لها عليه، ولا تملك تعديل نظامه، أو قانونه، أو مد سن العاملين فيه!!...

ومن هذا المنطلق، لابد وأن يتحسّن الأداء الحكومى، ويقل الروتين، وتتبسّط القوانين، مع تشديد العقوبة على المخالفين؛ لأن القانون فى بلدنا يسير بقاعدة عكسية معقّدة، فكل العقوبات بسيطة، مما يشجّع على التجاوز، والقوانين كثيرة،

ومعقّدة، بحيث لا يرتاح إلا المحتالين والمرتشين، ويتعذّب الشرفاء والبسطاء، وكل المطلوب هو أن نعكس الآية، فتنصلح الأمور...

وكل هذا يحتاج إلى جهاز إعلامى قوى، ينشر الحقائق بشفافية ووضوح، ولا يخفى عن الناس أخطاء الدولة والوزراء، ولا يحابيهم أو يجاملهم، ولا يكون تابعاً للدولة، بأى حال من الأحوال، ولا يمكن أن يخضع لسيطرتها، أو يتقاضى راتبه منها، وهذا ينطبق على الصحف أيضاً، فلا يصح أن تكون هناك صحف حكومية تطلق على نفسها من باب الشياكة اسم الصحف القومية، و....

والخيال يمكن أن يمتد بنا بلا نهاية ولا شطئان فبحر الأمل لا حدود له ولكننا سنعود حتماً إلى واقعنا لنتحسّر ونغمغم فى مرارة.. ياعينى يامصر.

* * *

Looloo
www.dvd4arab.com

الفهرس

تجربة بيروقراطستان ٧

المأزق ٤٥

يا عين يا مصر ٧٥

Looloo
www.dvd4arab.com

Dr. NABIL FAROUK

"تعلمنا من دراسة الطب أن هناك نوعاً من الخلل النفسي يدفع صاحبه إلى المبالغة في الحديث عن امتلاك ما ينقصه ، فالرجل الذى يتباهى بقدراته الجنسية ، يعانى من عجز ما يحاول إخفاءه ، والشخص الذي لا يتوقف عن الحديث عن قوة شخصيته ضعيف إلى حد الاستكانة ، والمرأة التي لا تكف عن الحديث عن سعادتها الزوجية هى زوجة تعسة محبطة ، ولعلنا من المنطلق نفسه ندرك لماذا تكثر الدولة من الحديث عن الحرية والديمقراطية وحرية الرأى !!! "

نبيل فاروق

L WAHB

EL Shorouk الشروق

9994989000001

يا عولى يا مصر L.E12.00